



أصوات المهاجرين الشباب من
لبنان وليبيا وتونس

وداء الجوار

أصوات المهاجرين الشباب من لبنان وليبيا وتونس

فراس الحلاق
جويل الشيخ
ريان منصور
عليا جريج
ريتا عبيد
ثيا خوري

امنة السلاك
ناي غرة
فاطمة شحادة
ناظم اللطيفي
آية الشريكي
مُحسن الظاهر

اش كاي
علي عمر
كريم شبلي
جاد دوماني
أمين أبو قاسم
ميسرة ساسي

ICTJ

عدالة
حقيقة
كرامة



Ministry of Foreign Affairs of the
Netherlands

شكر وتقدير

يودّ المركز الدولي للعدالة الانتقالية أن يعرب عن امتنانه لكلّ من ساهم في مسابقة الكتابة "وراء البحار"، لا سيّما المشاركين والمشاركات الذين شاركوا تجاربهم الشخصيّة وساهموا في أنسنة واقع الهجرة عبر سرد قصصهم. ونحن ممتنون خصوصاً للفائزين والفائزات الذين سمحوا لنا بنشر مساهماتهم في هذا الكتاب وعرضها على جمهورٍ أوسع.

كما نعرب عن عميق امتناننا لأعضاء لجنة التحكيم المرموقين المُتحدّرين من لبنان وليبيا والعراق وتونس وهم: فاطمة شرف الدين وبول طبر وتركّيّة الواعر وطارق لملوم وهيفاء زنكنة ومحمّد جويلي، على وقتهم وخبرتهم وأفكارهم الثيّرة.

نود أن نتقدم بجزيل الشكر لفاطمة شرف الدين وهيفاء زنكنة على جهودهما القيّمة وصبرهما في صقل شهادات الفائزين إلى أفضل صورة كما عُرضت في هذا الكتاب.

كما نشكر راؤول ملاط على رسوماته الإبداعية المستوحاة من قصص الكاتبتين، ولارا دبيق على الترجمتين العربية والفرنسية، وأمير جعفر كمال على الترجمة الإنجليزية.

وقد أبصرَ هذا الكتاب النور بفضل الدعم السخيّ الذي قدّمته وزارة الشؤون الخارجية في مملكة هولندا.

نبذة عن المركز الدولي للعدالة الانتقالية

يعملُ المركز الدولي للعدالة الانتقالية، عابراً المُجتمعات ومُنخبطاً الحدود، من أجل التصدي لأسباب الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان ومُعالجة عواقبها. فنحنُ نُؤكّد على كرامة الضحايا ونُكافح الإفلات من العقاب ونُعزّز المؤسسات المُتجاوبة صلب المُجتمعات الخارجة من حكم قمعي أو من نزاع مُسلّح، وكذلك في الديمقراطيات الراسخة حيث لا تزال المظالم التاريخية والانتهاكات المُمنهجة دون تسوية. ويتطلّع المركز الدولي للعدالة الانتقالية إلى عالم تُحطّم فيه المُجتمعات حلقة الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان وترسي أسس السّلام والعدالة والإدماج.

لمزيد من المعلومات الرجاء زيارة الموقع الإلكتروني التالي: www.ictj.org/ar

© 2025 المركز الدولي للعدالة الانتقالية. جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استنساخ أي جزء من هذا المنشور، أو تخزينه في نظام استرجاع، أو نقله بأي شكل أو وسيلة، أكان ذلك إلكترونياً أم ميكانيكياً، أو بواسطة التصوير الضوئي، أو التسجيل، أو غير ذلك، من دون نسب الجزء إلى مصدره بالكامل.

الفهرس

vii	تمهيد
xi	المُقدِّمة
2	أحياء بين الأمواج — آش كاي
10	رحلتي إلى الحرّية — علي عمر
18	بين الحرّية والأمان — كريم شلبي
24	أريد أن أعيش — جاد دوماني
30	عد إلى بلدك — أمين أبو قاسم
36	في ظل الفتاة الصغيرة — ميسرة ساسي
42	غريبة في وطني — أمانة السلاك
48	الوطن الذي يسكنني — ناي غرة
54	من دمشق إلى الحياة — فاطمة شحادة
60	مجموعة 12 — ناظم لطيفي
68	"لهجتك غريبة، من أين أنت؟" — آية الشريكي
74	لم أرد الرحيل يوما — محسن الظاهر
82	أنت وحيد — فراس الحلاق
86	اخترت أن أعانق الحياة — جويل الشّيخ
92	طلب اللجوء ليس ما يحلم به الناس عادة — ريان منصور
98	المنفى — عليا جريج
104	الحياة بين عالمين — ريتا عبيد
110	هذا ما أردت قوله لك — ثيا خوري

تمهيد

الهجرة والسرد، الذات تحكي أشجانها

الهجرة، الهجران، التهجير، الهجر والمهاجرة، كلمات تعني الترك والبعد والقطيعة والجفاء والقسوة. يكاد المعجم العربي لهذه المشتقات لا ينتهي. من الناس من اختار هجرته، ومنهم من دُفع إليها دفعًا. ولكنَّ الإحالات، في أغلبها، تحمل معاني مليئة بالشجن. ومن الشجن تنبت الحكاية.

أن تهاجر اختيارًا أو طوعًا أو قسرًا لا يعني بالضرورة أن تمتلك القدرة على سرد التجربة. فالسرد هو "معنى المعنى"، هو أن ترتقي بالحالة إلى اللغة، إلى الذات التي تشكّل المتخيّل في كل ما جرى. النصوص التي أمامنا هي من الصنف الذي يبدّد الفكرة الشهيرة القائلة بـ "موت الكاتب". في هذه النصوص، تحرّرت الذات من أغلال المهاجرين بوصفهم أرقامًا ورسومًا بيانية باردة ووثائق سفر على الحدود. وحدها اللغة لا تحتاج إلى تأشيرة عبور.

في هذه النصوص المعروضة في هذا الكتاب، تتجلى هجرة الاحتمالات والإمكانات، وتتجلى قدرة كُتّابها على الفضح، على كشف احتفالاتنا التكرية. ومع هذا كله، فإنّ في هذه النصوص درسًا في الإنسانية المنهكة من تداعيات "متلازمة السبديات الوطنية" التي تواجه، بلا هوادة، طواحين الريح. نكتب كي لا ننسى. فاللغة وطن بديل.

نصوص من آفاق متباعدة. مكثفة إلى الحدّ الذي يجعلنا نعيد قراءتها مرارًا، فتناسل من النص الأصلي نصوصٌ أخرى لا نقدر على الإمساك بتلابيبها. يصيح القارئ هنا منشغلًا بالقراءة، وبإعادة كتابة نصٍّ من النص. ونظريات الاستقبال كفيلة، وحدها، بإتمام ما تبقى من جراحات الكتابة.

نصوص، وعددها ثمانية عشر، كتبت بشجن الذات؛ تلك الذات الكاتبة المهمومة بذاتها، تتساءل عن معنى الوجود، عن معنى أن تكون فردًا وسط الزحام، يبحث عن خلاص من قيود لا حصر لها. قيود تنتجها روابط جيوسياسية متحوّلة: على ضفّة، حروبٌ وصراعات إقليمية وأوضاع داخلية لا تشي بالحياة، وعلى الضفّة الأخرى، خيارات عائلية، ومسارات مهنية ودراسية، وهناك

أيضاً بحثٌ عن الحرية. تجارب في الهجرة تم سردها، فيها من الوقائع كما فيها من المتخيل، وما أجمل المتخيل فيها.

هل نحن إزاء أشجان الذات المهاجرة كتابةً؟ أم نحن إزاء أشجان بشر يرومون الترحال ولكن القيود تمنعهم؟ وإن هاجروا، تُبدهم أسئلة الوجود، وأسئلة الثقافة والاندماج والهوية، والعلاقة بالأمكنة، والأزمنة، والأذواق، وتجارب الحب ما نجح منها وما فشل، والتمييز العنصري، وكره الأجانب، ولكن كذلك التآلق وفرض الذات والمكابدة. ولنا في النصوص المعروضة ما يدلّ على ذلك.

أنا من الجيل الذي اكتشف الكتابة عن الهجرة عبر "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح؛ الجيل الذي ناصر بطلها "مصطفى سعيد" لأنه حقّق لنا أحلامنا وفانطازماتنا وتخيّلنا الجامحة المكبّلة، وأسعدنا بانتصارات متخيلة وهمية. وقبلي كان جيلٌ آخر اكتشف توفيق الحكيم في روايته "عصفور من الشرق" سنة 1938، وفيها جدل الشرق والغرب والعلاقة المركّبة بينهما. كنّا في عنفوان السرديات الكبرى التي ميّزت القرن العشرين. الأدباء وحدهم يكتبون عن الهجرة تجربةً. لا أحد غيرهم.

أمّا اليوم، فنحن في متاهات السرديات الصغرى، في "ميني سيستم"، جزئيات المعنى، الذي ينتجه البشر العاديون الذين انتزعوا لأنفسهم حق السرد وحق الكتابة.

ما يميّز نصوص هذا الكتاب أسلوبها الممتع، اللذيذ، والمستساغ. فمنها ما حلّق في سماءات الرمز والتجريد، ومنها ما حاكى الوقائع بدقة لا متناهية، ومنها ما أدمى القلب ونيش في جراحات قديمة. تخال وأنت تقرأ النصوص أنها تسرد تجربة عشتها، أو عاشها أحد معارفك من قبل، أو قد تعيشها يوماً ما. ويتشكّل في النصوص ما هو فردي، وما هو عائلي، وما هو وطني، وما هو عابر للأوطان والحدود، جغرافياً أو رمزياً، وعابر للمجتمعات والثقافات. كل هذه العناصر مجتمعة جعلت من هذا الكتاب عملاً فريداً في مجاله.

شكراً لمن كتب، وشكراً للمركز الدولي للعدالة الانتقالية على فريدة التجربة.

محمد جويلي
أستاذ علم الاجتماع
جامعة تونس

المُقدِّمة

"الهجرة - أفسريّة كانت أم مُكرهة أم مُتعمّدة أم بعضًا من كلّ ما سلف- هي سِمَة تطبّع المشهد السّياسيّ العالميّ. والهجرة يُساء فهمها، فالخطاب المحيط بها يكاذّ لا يمتّ إلى واقعها بأيّ صلة. وبلورّت سرديّة تتأصّل في الجهل، ويُسيّر جزءًا منها على الأقلّ، التّلاعب السّياسيّ في مخاوف العامّة."¹

كان الشّباب المُحرّك الأساسيّ للثّورات التي اندلعت في كلّ من تونس وليبيا ولبنان، ومع ذلك، لم تشهد حياتهم، منذ ذلك الحين، أيّ تحسّن يُذكر. فهم لا يزالون يعانون بطلالة كاسيحة، وقلّمًا يستطيعون المُشاركة في العمليّات السّياسيّة. ثمّ حلّت الجائحة التي ما كان منها إلا أن فاقمت مظلّمهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة وفصّحت إرث العنف الدّفين في كلّ من البُلدان الثّلاثة. أمّا الاضطرابات والنّزاعات السّياسيّة التي تلت الثّورات، فساهمت في تحويل منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا إلى مصدرٍ دائمٍ للمهاجرين بدواعٍ إمّا سياسيّة وإمّا اقتصاديّة.

فالمُهاجرون بدواعٍ اقتصاديّة عادةً ما يرحلون عن مواطنهم بسبب ضآلة الفرص، والتّهميش، وانتفاء التّماذج التّنمويّة التي تكون على قدر طموحاتهم. أمّا المُهاجرون بدواعٍ سياسيّة فغالبًا ما يُرغمون على الفرار بسبب انتماءاتهم السّياسيّة أو الأعمال العدائيّة المُستمرّة أو الإخفاق في التّرميم التّالي للنّزاع والحائل دون إقامة حياةٍ كريمة.

بصرف النّظر عن دواعي الهجرة أُسَاسيّة كانت أم اقتصاديّة، فإنّ شبابًا كثيرين لا يرون أنّ لهم دورًا بعدد يؤدّونه في مواطنهم. لذا، يفتشون عن آفاقٍ أفضلّ حالًا وأمنًا في المهجر، وهو قرارٌ يُلقى آثارًا عاطفيّة واقتصاديّة بالغة على أسرهم وجماعاتهم على حدّ سواء.

ولا تنفكّ ظاهرة هجرة الأدمغة تزدادُ بروزًا وإشكاليّة في الجنوب العالميّ. فالمُجتمعات هناك بدأت تخسر استثماراتها التي خصّصتها للمواطنين لا لسببٍ سوى لأنّها لم تعد تقدر على منحهم الفرص التي تُحوّل لهم عيشٍ حياةٍ مُرضية.

1 لوسي هوفيل، "المُصارحة بحقائق عن الهجرة"، "الدّوريّة الدّولية للعدالة الانتقاليّة"، 13، 2 (تموز/ يوليو 2019): 199-205.

إزاء هذا الواقع، أطلقَ المركز الدولي للعدالة الانتقالية مسابقة في الكتابة في أيلول/ سبتمبر من العام 2023، دعا فيها الشّباب المهاجرين (ممن لا تزيد أعمارهم عن 35 سنة) من مواطني لبنان أو ليبيا أو تونس أو من المُقيمين في أيّ منها إلى مشاركة تجارب هجرتهم الشخصية على شكلِ شهاداتٍ خطيّة تكون مميّزةً ووجيزة.

وقد سعت المسابقة إلى إضفاء ملامح إنسانيّة إلى الأرقام الهامدة التي تنبثق عن إحصاءات الهجرة. ودعت المسابقة الشّباب المهاجرين ممن غادروا مواطنهم بدواعٍ سياسيّة أو اجتماعيّة واقتصاديّة إلى مشاركة تجاربهم والتّكلّم عن التّحديات الماثلة أمامهم، والتّعبير عن آمالهم التي يعقدونها على أنفسهم وعلى بلدانهم، وذلك عبر سرد القصص. سلّطت المسابقة الضّوء على قصصٍ تحكي هجراتٍ عاديّة وأخرى غير مألوفة على حدّ سواء.

رمت المسابقة المُعنونة "وراء البحار"، من خلال استغلالها قوّة السرد، إلى إمعان النّظر في تأثير التّهميش والإقصاء والظلم والنّزاع في تقرير الشّباب الرّحيل. وقد شجّع المشاركون أيضًا على التّفكير مليًّا في التّحدّيات التي يواجهونها في المهجر، بما فيها أشكال القمع والإقصاء الحديثة.

كان للجنة التّحكيم المؤلّفة من كُتّابٍ وأكاديميين ومناصري حقوق الإنسان مرموقين من العراق ولبنان وليبيا وتونس، الفضلُ في إنجاز مسابقة "وراء البحار". فقد قرؤوا عددًا كبيرًا من النّصوص المُقدّمة، ثم انتقوا الفائزين على أساس الإبداع والتميّز والقدرة على إثارة التّفكير والجدل والتّغيير المُجدي.

ففي عالمٍ غالبًا ما يؤاثر شبابه التّعبير عن أنفسهم بالفنون البصريّة وبالوسائل الرّقميّة، كان إطلاقُ مسابقة في الكتابة أمرًا محفوظًا بالتّحدّيات. ومع ذلك، كانت النّصوص المُقدّمة بمثابة شهاداتٍ صارخة تنقل واقع المهاجرين الشّباب المرير. ولعلّ الأهمّ من ذلك هو إبداع مُشاركين كُثُرٍ تمام استعدادهم للعودة إلى مواطنهم إن توفّرت فيها الظروف المُواتية.

وبعد مرور أربعة أشهر على إطلاق المسابقة، أُعلنت أسماء الفائزين الثّمانية. ثم حضر الفائزون، في آذار/ مارس 2024، حفل توزيع جوائز مسابقة "وراء البحار" ومؤتمراً دوليّاً عُقد في تونس، شاركوا خلالها تجارب هجرتهم الشخصية. وقد تداول المشاركون في مسألة الهجرة وفي ظاهرة هجرة الأدمغة على مستوى السّياسة العالميّة، فوسّعوا، بذلك، نطاق المشروع حتّى شمل تجاربًا من بلدان مختلفة، ومنها المغرب وسوريا واليمن. ورمى هذا المُلتقى إلى التّوعية على أزمة الهجرة، وإلى تعزيز الحوار المُجتمعي في شأنها، وإلى حثّ الشّباب على استكشاف حلولٍ مُحتملةٍ لها.

وقد اختار المركز الدولي للعدالة الانتقالية أن ينشر الشهادات الثمانية عشر هذه، على أمل أن تثير الجدالات العامة والسياسية في شأن الهجرة وأسبابها الجذرية وأن تؤثر فيها وتغيرها، وأن تساعد، في الوقت نفسه، على الحث على التغيير وفي إيجاد الحلول المُجدية للمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تدفع الأفراد إلى مغادرة مواطنهم. هذه الشهادات، مقرونة بمبادرات متعلقة بالعدالة، تساهم في تمهيد السبيل أمام تحقيق التغيير السياسي المطلوب وتنفيذ الإصلاحات المؤسسية والتشريعية اللازمة.

نور البجاني، مديرة برنامجي لبنان واليمن في المركز الدولي للعدالة الانتقالية
ريم القنطري، مديرة برنامج ليبيا السابقة في المركز الدولي للعدالة الانتقالية
سلوى القنطري، خبيرة أولى للبرامج في المركز الدولي للعدالة الانتقالية



أحياء الأمواج

آش كاي

آش كاي سورية تعيش حاليًا في هولندا. تعمل في
مجال الفن. هدفها هو أن تعيش بسلام دون كراهية
أو حرب أو حدود أو تمييز.

تلك الليلة، عندما ألقى رجال الوكالة الأوروبية لحرس الحدود والسواحل (Frontex) القبض على قاربنا الصغير، لم نسمع سوى طلقٍ ناري واحد.

طلقة واحدة مزّقت المطّاط والخشب الطري وأحدثت ضررًا. وجّه ثلاثة رجال ضخام صوبنا مصابيح مشعّة من قاربٍ أبيض كبير. لا أزال أجهل من أين أتوا ومتى! أذكر فقط أنّ قاربنا الصغير بدأ يتأرجح على الأمواج العالية التي ظهرت فجأة. كنت على وشك السقوط. لم أجد شيئًا أتمسّك به، فاغمضت عيني.

في الظلام تسمع جيّدًا الأصوات التي تصبح قويّة ومروّعة إلى حدّ كبير، فتعجز عن تجاهلها. كم أكره عتمة الليل! أخذ الرجال محرّك قاربنا ورشّونا بالمياه.

لن أنسى قطّ رائحة الطلق الناريّ الممزوجة برائحة البحر وصيحات الرعب المتعالية بين النسوة والأطفال. أتاني شعور بالتقيؤ، لكنني أدركت فورًا أنّ الوقت لم يكن مناسبًا لذلك!

انهالوا علينا بصراخٍ عدوانيّ: "من منكم يعرف الإنكليزيّة؟"

أنا أتكلّم الإنكليزيّة، لكنّ صوتي لم يُساعدني. كانت كلماتي وأنفاسي عالقة في زلعمي. لطالما اعتدتُ حبس أنفاسي وكنم صوتي، لزمّتُ الصمت كي أحمي نفسي من عنف هؤلاء الرجال؛ لكنني، تلك الليلة، أردت أن أصرخ بأعلى صوتي لأدافع عن نفسي. لم أستطع. حنجرتي لم تساعدني، وعلى عادتها، خانتني.

رفع شاب يده المرتجفة. أمره بأن يدلّهم على قبطان قاربنا الصغير الواهن، وإلا سيطلقون النار علينا جميعًا. لم يفتح فمه، والكلّ كذلك، بقينا مطبقين الأفواه. اعتقد أننا جميعًا توقّعنا ما سيحلّ به؛ شاب يافع في زهاء العشرين من عمره. ازداد عنف رجال وكالة فرونتكس الثلاثة سوءًا وبدأوا يهزّون قاربنا بعنف، لإلقائنا جميعًا في البحر، مع الاستمرار في رشّنا بالمياه.

صرخت إحدى النساء: "هو!"، وهي تشير بإصبعها إلى الشخص الذي كان يقود القارب. وفي لمح البصر، كان الشاب يُضرب على مرأى من الجميع، وللحظة كدت أسمع صوت عظامه تنهش! ذكرني ذلك الموقف بيومٍ رفعني فيه أخي عاليًا ثم رماني أرضًا فكسر كوعي... الصوت نفسه.

اختلطت رائحة الدم بمزيج الروائح الأخرى. سحبوا الشاب من كتفيه وألقوه في قاربهم الكبير. رأيت عظمة كتفه اليمنى في موضع غير موضعها الطبيعي! كان وجهه مضرجًا بالدماء. لوهلة، ظننت أنه مات، لكن أنيه الواهي كان الدليل على أنه ما زال على قيد الحياة. غضب الجميع من تلك المرأة النمامة التي سبّبت الأذى لذلك الشاب، لكننا لم نتفوّه بأيّ كلمة. كانت تضع ابنها المريض في حضنها؛ ولو كنت أمًّا لرّبما فعلتُ مثلما فعلتُ لأحمي أطفالي. بدأ الرجال الثلاثة يصرخون مجددًا آمرين الشاب الذي تولّى الترجمة أن يطلب منا إعطاءهم كلّ ما نملك.

كان لأصواتهم صدىً في تلك الليلة في وسط البحر.

سلبونا حقائبنا وهواتفنا وأموالنا، وحتى سترات النجاة. جُرّدنا من كلّ ما نملك!

لحسن حظّي كنت قد خبّأت هاتفي وجواز سفري السوري وبعض المال في حمّالة صدري! اكتشفت لاحقًا أنّ النسوة فعلن مثلي! كم نحن محظوظات لامتلاكنا الأثداء ولاستعمالنا حمّالات الصدر! بعد أن أخذوا كلّ ما أمكنهم رؤيته بالعين المُجرّدة، ألقوا لنا حبلًا سميكًا وطلبوا منا أن نتمسك به ونمشي واحدًا تلو الآخر إلى قاربهم الضخم. راح الجميع يسأل: "إلى أين أستاذوننا؟" وكانت الإجابة الوحيدة التي حصلنا عليها هي: "إلى جزيرة روديس أيّها الأوغاد!"

ما إن ركبنا جميعاً متن القارب الأبيض الكبير، أمروا النساء بالجلوس إلى اليسار والرجال إلى اليمين. بدأت أردد في ذهني أغنية للمغنيّ زين ماليك باللغة الإنكليزية: لن تكون وحيداً أبداً، سأكون معك من الغسق إلى بزوغ الفجر! حبيبي أنا هنا! سأعانقك عندما تسوء الأحوال، سأكون معك من الغسق إلى بزوغ الفجر! حبيبي أنا هنا! كانت تلك الأغنية، ولا تزال، طريقتي الوحيدة للتخفيف عن نفسي ولتهدئة نبضات قلبي والتنفس مجدداً! لطالما استعملتها في صغري، وصدّقوني، هي التي أبقتني على قيد الحياة حتّى اليوم... فهي تصرف انتباهي عن الواقع وتفصلني عنه. إنّها عدّة نجاة مجّانية يُمكنكم أن تأخذوها معكم أينما كنتم وأن تستعملوها متى أردتم!

سنحت لي الفرصة أن أنظر داخل أعين الرجال الضخام. رأيت أعيناً خضراء غاضبة محاطة بأوعية دموية حمراء دقيقة. رأيت غضباً شديداً في تلك الأعين! أعين من قطعوا رحلتنا إلى الأمل! قبعات صوفية سوداء كانت تحجب ملامح وجوههم، لا يظهر منها غير أفواههم. كانوا يتفوّهون بكلمات قدرة! اليوم أتمنى لو كنت أستطيع تذكر المزيد من التفاصيل، لكن الكثير قد امحى من ذاكرتي. أنا ممتنة لذلك، لكن في الوقت نفسه لديّ فضول لتذكّر كل شيء. أحاول مراراً أن أركّز، لكن لا إجابات واضحة على تساؤلاتي. ممّا أذكره، أقدامهم الضخمة بأحذية كبيرة تتحرّك بشكل عدوانيّ، لتأخذ الرجال واحداً تلو الآخر، فتزيل ملابسهم للتحقّق ممّا إذا كانوا ما زالوا يخفون شيئاً معهم.

كنت على وشك فقدان الوعي عندما اكتشفوا أنّ أحد الرجال كان يخفي نقوداً في جيب من جيوبه. ضربه بشدّة. رأيت وجهه أسفل حذاء أحد رجال فرونتكس، وعيناه على وشك أن تخرج من وجهه. كانوا يتحدثون بكلمات غير مفهومة. غطّيت رأسي بين يدي. بدأت أسمع صراخاً وأصوات ضرب! كنت أنتظر دوري، لكن في النهاية تبين أنّهم لا يفتشون النساء. كانوا فقط يسألونا إذا كان في حوزتنا أي شيء، ولم تعترف أيّ ممّا. جميعنا أنكرنا! لا أعلم كم من الوقت وقفنا على تلك السفينة الكبيرة نلقّي إهاناتهم. لم يُسمح لنا بالحصول على الماء، والأشخاص الذين أرادوا التبول كانوا يتبولون أمام الجميع! في مرحلة ما، كنت أشم رائحة البول من حولي لدرجة شعرت

وكأنني في مرحاض مدرسيّ قذر. فجأة، أمرنا الرجال الثلاثة الضخام بالوقوف. رموا قاربنا المكسور في البحر بعدما كانوا قد سحبوه لكي نصعد إلى مملكتهم! في تلك اللحظة، أدركت أنه لا أمل في خلاصنا! بدأوا في رمي الرجال من الأعلى إلى الشيء الصغير المتضرر الذي كنّا عليه، ثمّ جعلونا، نحن النساء، نمسك بحبل سميك لننزل مرّة أخرى إلى قاربنا الصغير. كانت الأصوات أعلى من أيّ وقت مضى في تلك اللحظة. كنّا من دون حماية؛ فقد أخذوا سترات الأمان الخاصّة بنا، قاربنا كان مكسورًا، وكنا مرهقين! أخذت الحبل ورميت بنفسي، فتلقاني الرجال الذين كانوا ينتظرون النساء للانضمام إليهم. بدأت أتقيأ، رغم أنه لم يكن في معدتي شيء. كنت أتقيأ روحي! احتفظ فرونتكس بالرجل الذي كان يقود قاربنا. لم نعرف عنه شيئًا بعد ذلك. طلبوا منّا التمسك بالحبل السميك كي يتمكنوا من سحبنا بسفينتهم. ثمّ رموا لنا اثنين أو ثلاثة من سترات النجاة وستّة بالونات مطاطيّة، اعتقد أنّ عددنا كان 27 شخصًا على القارب، ودبّت الفوضى حول من سيستخدم سترات النجاة في حالة غرق القارب! كانت الرياح قويّة للغاية. كنت أرتجف، مستسلمة كليًا! لم أكن أريد حتّى أن أمسك بالحبل! تكوّرت على نفسي وأخفيت وجهي. لم يعد يهتمني ما سيحلّ بي. لم أكن أشعر بشيء على الإطلاق. كانت قدماي مخدّرتين، وكذلك قلبي وذهني! انتهى استسلامي بسماع صراخ. أمرنا أحد رجال فرونتكس بإفلات الحبل! اعتقد أن الجميع كانوا مخدّرين مثلي، فتركوه مباشرة دون حتّى أن يسألوا عمّا سيحدث بعد ذلك. فقط في هذه اللحظة أدركنا وجود قارب آخر، حيث كان رجال فرونتكس يرمون منّ عليه من اللاجئين في البحر بشكل رهيب! كان صوت الأمواج في وسط البحر أعلى بقليل من صوت طرقات قلبي! كياني كلّهُ ضُرب في الصميم، ممّا جعلني أنسى الخوف العميق الذي كان داخل روحي. في تلك الليلة، رأيتهم يخفون في مكان لا عودة منه. حاولت جاهدةً ألا أنظر وألا أسجّل ذلك في ذاكرتي، لكنّ أصواتهم، صرخاتهم التي تطلب الرحمة والمساعدة، منعني من إيقاف نفسي عن مشاهدة تلاشيهم في الأزرق! للأسف، بعد كلّ موقف سيّء تجد نفسك فيه، تفقد جزءًا جديدًا من روحك! في تلك الليلة فقدت نفسي تمامًا!

كان الماء يرتفع أكثر فأكثر في القارب الصغير الذي كان يحملني واللاجئين الآخرين. كانت رائحة الموت تحيط بنا كلياً، لكن يبدو أننا كنا أكثر حظاً من المساكين في القارب الآخر. لنقل إننا كنا أكثر طاعة. نسيت أنني كنت أحتفظ بهاتف في صدري. بينما كانت النساء يتصلن بالناس للمساعدة، خطرت لي فكرة أيضاً لطلب المساعدة. أخرجت هاتفي، مبتسمة وكأنني حققت نصراً كبيراً، أخذت بعض الصور وشاركتها مع خلية الإنقاذ والمتابعة (M.R.C). كانت الإرسال ضعيفاً، لكن بعد عدة محاولات تمكنت من تلقي مكالمة من رجل يتحدث العربية من خلية الإنقاذ والمتابعة. سألتني أين نحن وكم عددنا، وإن كنا جميعاً بخير. كانت إجابتي الأولى: "من فضلك أرسل لنا المساعدة. لا أعلم أين نحن لكنني شاركت الموقع معك! هناك أشخاص أماننا يغرقون ولا يمكننا مساعدة أحد! لا نملك سترات أمان كافية، والمياه تملأ قاربنا أكثر فأكثر. نحن نموت ببطء". فقدت الاتصال. عندما تكون قريباً من الموت ترى الأمور بشكل مختلف. أعتقد أنني في ذلك اليوم لم أرد أن أرى المزيد؛ رأيت بما فيه الكفاية. أعدت إمساك رأسي بين يدي وبدأت أغني مرة أخرى مترنحة مع الأمواج التي لا تملّ الحركة. أكتب الآن هذه الكلمات ولا أزال أشعر بالأمواج في دماغي، وكيف كانت تهزّ أرواحنا ببطء.

كانت ملابسي مبلّلة بالكامل! كنت أشعر ببرد شديد وبيأس أشد! عندما بدأت الشمس بالظهور. كان يوماً رائعاً لمغادرة هذا العالم القذر، طريقة سلمية للموت الآن، مودعة ذاك الشروق الرائع! رأيت والدي يتسم لي في السماء، وكان بإمكانني رؤية أقاربي وأصدقائي، وضمهم وشمهم.

صوت زئير قوي أعادني إلى الواقع. رأيت علماً تركياً على قمة قارب رمادي. لا أظن أنني متأكدة من أنه كان رمادياً، لكن على الأقل هذا ما أذكره الآن! وصل المنقذون إلينا! لا أذكر شيئاً بعد ذلك، غير رجال يرتدون زيّاً موحدًا ويتحدثون التركية، يسألونني أسئلة غريبة. قدّمت لي زجاجة صغيرة من الماء ولقوني ببطانية! وضعونا في قاربهم وأوصلونا إلى ميناء تركي. كانت الأمواج ما زالت حقيقية حتى ونحن جالسين على اليابسة بعد

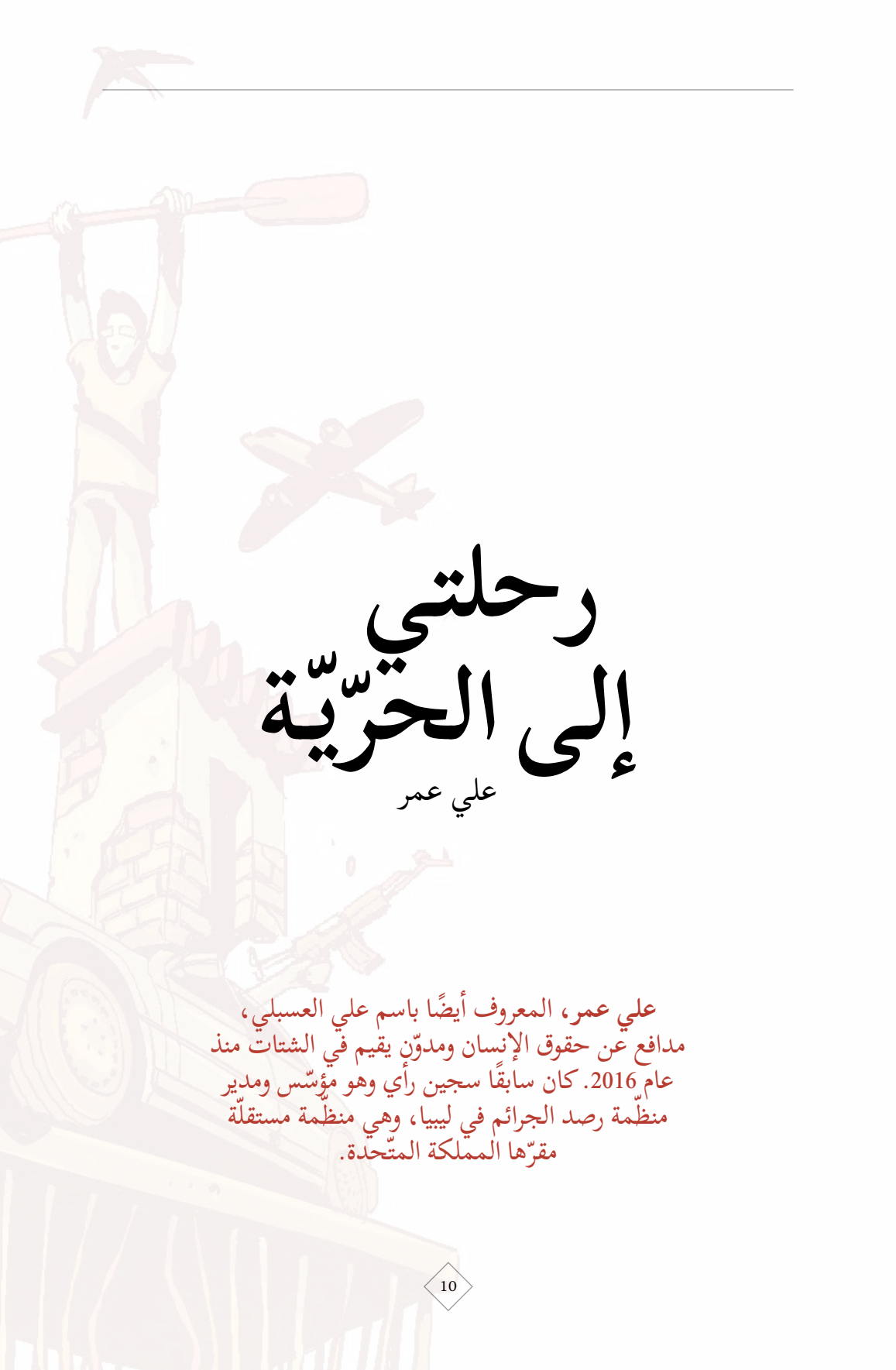
أن تمّ إنقاذنا! فقدت القدرة على التمييز لفترة طويلة. لم أستطع التحدّث أو التعريف عن نفسي؛ لم أستطع حتّى البكاء! تمنّيت لو كان بإمكانني أن أبكي! كنت فقط أتحرك أصابعي محاولة توجيههم للنظر مرّة أخرى إلى الأشخاص الذين غرقوا. كان حلقي لا يزال يخونني. لا أعرف كم من الوقت نمت في الهواء الطلق في الميناء، حيث أخذنا حراس السواحل التركيّة! لكن عندما استيقظت بدأت أصرخ؛ فقد عادت إلى صوتي كلّ قوّته. صرخت طالبة المساعدة للأشخاص الآخرين هناك في البحر! لكن كان الأوان قد فات! استسلمت للنوم مرّة أخرى، ولم استيقظ إلّا على أيدي تحمّلني للانتقال إلى حافلة. لم أكن مدركة من أنا أو أين أنا.

حين استيقظت وجدت نفسي على الأرض بجانب أحذية كثيرة. أخذت بعض الصور وعدت إلى النوم بسلام مرّة أخرى. تركنا في مرآب في مركز الشرطة لمدة 3 أيّام! كنّا نشرب الماء من المراحيض، حرفيّاً! كانوا يُعاملوننا أسوأ من معاملة القطط في البلدان التي لا تحترم الحيوانات.

نمت كما لم أنم من قبل في مرآب مفتوح ليلة بعد ليلة، متجمّدة من البرد، ومتعطّشة للأمان.

الأمان الذي هربت من بلدي للبحث عنه.





رحلتي إلى الحرّية

علي عمر

علي عمر، المعروف أيضًا باسم علي العسبلي،
مدافع عن حقوق الإنسان ومدوّن يقيم في الشتات منذ
عام 2016. كان سابقًا سجين رأي وهو مؤسس ومدير
منظمة رصد الجرائم في ليبيا، وهي منظمة مستقلة
مقرّها المملكة المتّحدة.

في تشرين الأول/أكتوبر 2023، قضيت سبع سنوات كاملة بعيداً عن ليبيا. لا أعرف من أين أبدأ قصّتي ولا أين سأنتهيها. لا أعرف كيف مرّت السنوات بهذه السرعة! ولا أعرف متى سأرجع مرّة أخرى. الشيء الوحيد الذي أدركه تماماً هو أنني شخص كاذب. فأنا أكذب على أفراد أسرتي باستمرار حين أعدهم بأنني سأرجع إليهم قريباً! يؤسفني قول ذلك.

في تشرين الأول/أكتوبر 2023، قضيت سبع سنوات كاملة بعيداً عن ليبيا. لا أعرف من أين أبدأ قصّتي ولا أين سأنتهيها. لا أعرف كيف مرّت السنوات بهذه السرعة! ولا أعرف متى سأرجع مرّة أخرى. الشيء الوحيد الذي أدركه تماماً هو أنني شخص كاذب. فأنا أكذب على أفراد أسرتي باستمرار حين أعدهم بأنني سأرجع إليهم قريباً! يؤسفني قول ذلك.

أعود بالزمن إلى شهر آذار/ مارس 2016. كنت أمام باب بيتنا، إذ بلحظات صمّت تعم المكان. سيّارة بزجاج معتم تأتي بسرعة، ومسلّحون بملابس رتّة ووجوه عابسة يهرولون نحوي. يومذاك لم أتحرك من مكاني على الرّغم من إمكانيّة الهروب. لا أعتقد أنّ ذلك كان من باب الشجاعة، بل ربّما هو القدر الذي حال بيني وبين أن أهرب أو أقاوم أو حتّى أستسلم! وعلى الرّغم من سكوني، تلقّيت ضربة على رأسي أفقدتني توازني للحظات، كانت كفيلة بأن أجد نفسي مقيّداً ومتّجهاً نحو المجهول. شعور يفوق الوصف، ولحظات لن أنسى أدقّ تفاصيلها مهما حييت.

لم أعلم أنّ تلك الدقائق ستحوّل إلى 120 ليلة كاملة داخل زنزاة انفراديّة، لا يعرف أحد مكاني. لم أكن أتوقّع أنّي سأخرج حيّاً بعد هذه التجربة، التي قاومتُ خلالها التعذيب بكافّة أشكاله، من دون أيّ ذنب إلاّ أنّي شابّ في بداية العشرينات عبّر عن آرائه بكلّ تهوّر فأزعج السلطات! وما لم يخطر في بالي أنّ هذه التجربة المؤلمة ستكون سبباً في تغيير جذريّ، ليس لطريقة تفكيري فقط، بل لمجرى حياتي بالكامل!

مرّ أقلّ من شهرين على إخلاء سبيلي، حين وجدت نفسي مُكرها على الخروج من ليبيا. لقد حاصرني الخذلان من جميع الجهات. ضاق الخناق عليّ بعد أن طلبت منّي السلطات أن أذهب إلى مقرّ عسكريّ في المدينة لمقابلة أحدهم بخصوص قضيتي، وأنّ أحضر معي جواز سفر. كان الهدف إبقائي تحت الإقامة الجبريّة. لكنني يومذاك أغلقتُ هاتفي وقرّرت الخروج من منزلي والتوجّه إلى منزل جدّي. ومن هناك ذهبت عند أحد أصدقائي في مدينة طبرق؛ وبعد عناء وتكاليف كبيرة، نجحتُ في الوصول إلى تونس.

تركت بلادي التي طالما كنت رافضاً بقوة لفكرة هجرتها. تركت كلّ شيء ورائي: عائلتي وما تبقى من أصدقائي، كتبي وذكرياتي، وكلّ شيء لا يمكن أن يُترك. أخذت فقط جثّة غير هامة مع جنبيات معدودة ومن دون أيّ تخطيط مسبق، ما عدا الإصرار والعزيمة على عدم العودة في ظلّ الظلم.

احتضنتني تونس بكلّ دفء. عشت بين أزقة أحيائها ثلاث سنوات كاملة، لم أشعر يوماً واحداً بأنني غريب. عشقت الإطلالة من أعلى سيدي بوسعيد، والجلوس على عتبات شارع الحبيب بورقيبة، وبدلّتُ شرب القهوة العربيّة بشرب الكابوسا، تماشياً مع التقاليد التونسيّة. أكلت اللابلاي والكمّونية، وعشقتُ الكسكسو بالمناني كما يعيشه أهل تونس. تعرّفتُ إلى أصدقاء وصديقات أضافوا لي الكثير، وبعضهم صار من الملهمين. صُقلتُ شخصيتي، وتعلّمت الكثير من الدروس. تعلّمت من وحدتي ومن غربتي، وحظيت بفرصة المواجهة. مواجهة الظروف والعقبات والتحديات وتحمل المسؤولية وحيداً. حين استعدتُ توازني بعد التجارب القاسية التي مررت بها، عدت إلى نشاطي

السياسي كما في السابق وأكثر. كنت أعمل وأكتب وأعبّر عن رأيي، وأظهر على التلفاز وأحضر المناسبات والملتقيات. صرت أكثر وعيًا ونضجًا.

وعلى الرغم من كلّ ذلك، كانت هناك رغبة قويّة في الخروج من تونس أيضًا؛ فتونس بكلّ ما فيها من حسنات، ليست مكانًا آمنًا للعيش، خاصّةً للمشاكسين أمثالي. المستقبل مجهول والوضع السياسيّ متقلّب، وقد يأتي يوم يسلمونني فيه إلى ليبيا. إضافة إلى ذلك، لا يمكنني الحصول على إقامة، ولا سبيل لتجديد جواز سفري.

هكذا كان عقلي يُخبرني. إلى متى سأبقى هنا؟ هل يجب أن أجد مكانًا آمنًا آخر؟ هل أنا قادر على خوض مغامرة جديدة؟ لقد بدأت بالفعل بطرح هذه الأسئلة على نفسي من الأشهر الأولى من وصولي إلى تونس. ومع الوقت اقتنعت أنّه يجب أن أهاجر إلى أوروبا، إلى دولة يمكنني فيها البقاء بأمان واستقرار، حيث أمارس أنشطتي النضاليّة بكلّ حرّية ومن دون خوف أو تقييد.

كنت أدخر المال وأعيش في تقشّف حتّى أتمكّن من التقديم على تأشيرات، لكن من دون أيّ فائدة. رفض بعد رفض بعد رفض. بدأ اليأس يتسلّل إليّ، حتّى جاء ذلك اليوم الذي عرض عليّ أحدهم أن يقدّم لي الحلّ، بعد أن رويت له قصّتي التي يبدو أنّها أثّرت فيه. اتّكأ عليّ وهمس في أذني: "يمكنني أن أدلّك على شخص يجلب لك تأشيرة لأيّ دولة ولكنّها مزوّرة. يمكن أن تجرّب حظّك". من دون تفكير طويل، أجبته بالموافقة وبأنّني مستعدّ لهذه المغامرة على الرغم من كونها غير قانونيّة. لم يعد لديّ خيار آخر؛ فقد سئمت من الرفض المستمرّ من قبل السفارات لكوني ليبيّ الجنسية!

وعلى الرغم ممّا يمكن أن يكون لهذه الخطوة من تبعات قد تصل إلى سجنّي أو ترحيلي إلى ليبيا، وثقت بذلك الصوت في داخلي الذي يخبرني بأنّني سأصل إلى ما أريد. وبعد بحث ليس بطويل، قرّرت أن أختار بريطانيا لأستقرّ فيها. الأسباب لم تكن كثيرة، ربما لقربها الجغرافيّ، ولأنّها بلد ناطق باللغة الإنجليزيّة التي كانت لديّ أساسياتها على الأقلّ، ولن أضطرّ إلى تعلّم لغة جديدة من الصفر. إضافة إلى ذلك، فإنّ نظام اللجوء

في بريطانيا لم يكن معقداً في ذاك الوقت بحسب معلومات من تواصلت معهم من أشخاص مقيمين هناك. الكلّ شجّعني على هذه الخطوة.

نيسان/أبريل 2019، جاء يوم الرحيل عن تونس. لم أحزم حقائبي. تركت كلّ شيء مجدداً كما تركته سابقاً. تركت ذكرياتي وكلّ مقتنيات غير الثمينة. تركت حتّى ملابسي. خرجت من شقتي من دون أن أخبر أيّ أحد، وعلى ظهري شنطة صغير. فأنا لم أكن أعرف ماذا قد يحصل. هل سأنفذ من المطار أم سأسجن أم أرحل؟ كنت متوتراً، ولكن مع أول خطوة خطوتها في المطار انقلب ذلك إلى طمأنينة غامرة ومشاعر مختلطة. مرّ كلّ شيء بشكل مثالي وأنا أتصرّف كأني طالب ذاهب إلى لندن للدراسة. هنا تنفّست الصعداء واعتقدت أنّ مغامرتي انتهت بسلام. لكنني اكتشفت أنّ هذه المرحلة هي بداية أخرى.

بريطانيا كانت مختلفة على جميع المستويات. لغة جديدة، ثقافات متنوّعة، نظام مختلف تماماً، الطقس والمباني والأكل والألوان والروائح أمور لا تشبه ما عرفته سابقاً. لمست الإنسانية من أول ملامح موظّفة المطار التي أخبرتها أنني أودّ تقديم اللجوء. قضيت ساعات طويلة في المطار، أكملت فيها الإجراءات اللازمة للجوء، وأرسلت إلى فندق (أو هوستيل) في أطراف لندن حيث قضيت أسبوعاً كاملاً في غرفة كبيرة تحوي عشرات الأسرّة المترصّة، يقيم فيها على الأقلّ عشرون شخصاً، لا أحد منهم يعرف الآخر. لا يجمع هؤلاء الناس أيّ شيء سوى الأمل في كتابة صفحة جديدة مشرقة من قصص حياتهم. اكتظّت تلك الغرفة بالقصص والحكايات الآتية من عشرات البلدان وأغلب القارّات، فجعلتني أخجل من رواية قصّتي. أناس عانوا مشقّة السفر بحرّاً في قوارب مطاطيّة، وآخرون مشوا حفاة من أقصى أدغال أفريقيا، وغيرهم من جاؤوا مختبئين في شاحنة ليصلوا إلى هذا المكان.

بدأت مرحلة جديدة في حياتي بعد أن حصلت على الموافقة على اللجوء في وقت قصير. لقد كانت قضيتي قويّة. فأنا ناشط معروف تعرّض للسجن والتهجير ولديّ كافّة الأدلّة على ذلك. وعلى الرّغم ممّا واجهته من صعوبات في الأشهر الأولى على وصولي،

تأقلمت واندمجت شيئاً فشيئاً. عدت إلى نشاطي السابق وأكثر، أكتب وأعبّر عن رأيي بكلّ حرّية. كذلك أسست بعد أشهر قليلة من وصولي منظّمة حقوقية تدافع عمّن يمرّون بتجربتي نفسها، وصارت اليوم من المنظّمات المعروفة في ليبيا.

أخيراً، صار لي بيت، حتّى ولو كان صغيراً ورأسى يكاد يصل إلى سقفه، لكن ما يميّزه هو أن لا أحد يستطيع دقّ بابي لكي يوقفني عن التفكير أو الكتابة! أخيراً، صار لي حائط أعلّق عليه صور الملهمين، ومكتبة صغيرة أجمع فيها شتات كتبي، ورفّ أرّتب عليه ذكرياتي من كلّ بلد أزوره. لقد فُتحت لي كلّ الأبواب عندما جئت إلى هنا. سافرت إلى جينيف وبروكسل ولاهاي، طبعاً ليس للسياحة، بل لأوصل قضية من تركتهم ورائي في السجون، ولأوصل صوت من أسكتت أصواتهم بالقوّة، من يُسمّع أنينهم تحت وطأة التعذيب، ولأنقل صرخات أمّاتهم، وكلّ ما يحصل في بلدي من انتهاكات. أحاول التغيير من موقعي، على الرّغم من البعد الجغرافي. إنّي أجزم أنّ تأثيري الآن ومستقبلاً، من مكاني هذا، أكثر بأضعاف مضاعفة من ذي قبل.





بين الحرية والأمان

كريم شبلي

كريم شبلي فنان مسرحي لبناني، كاتب ومخرج ومنتج، يعيش حاليًا في الولايات المتحدة أين يعمل كمحاضر في التعليم العالي. يحمل شهادة البكالوريوس في إدارة الأعمال والمسرح، وشهادة الماجستير في التعليم، وفنون الأداء والبيداغوجيا.

نشأت

في قلب الشرق الأوسط، في قرية صغيرة محافظة في جبل لبنان. كان لديّ أحلام كبيرة وأجنحة بيضاء أكبر، قمت بانتزاعها كي أندمج في المجتمع المحلي... وجدت نفسي زاحفاً عليّ يديّ وركبتيّ؛ لذا، خضت دوماً معارك شاقةً في مواجهة الأعراف والتقاليد المتجذرة في أسلافي، لا سيّما أنّي كنت أطمح إلى امتهان مجال الفنون في مجتمع خارج من الحرب، يحلو لأطفاله اللعب بالأسلحة والسيوف. لُقبت بالطفل المريب وغريب الأطوار، لأنّني كنت، وما زلت، مختلفاً.

بخلاف الصبية، لم أحب يوماً السيّارات السريعة والأسلحة، بل كان شغفي هو التمثيل والرسم وإخبار القصص. كان اتّصالي الوثيق بمشاعري يُعدّ تصرّفاً مُحرّماً، في مجتمع ذكوريّ مُسيّر بالخوف. عندما أدركت أن هذا الواقع سائئٌ لن يتغيّر، تعلّمت أن أواسي نفسي، فصرت أجد ملاذي في الكتابة وفي التمثيل وفي تركيب القصص. هروبي إلى عالم الخيال لسنوات صيرّ مخيلتي صديقتي الوحيدة. لكنّني خفت من دعوتي الحقيقية هذه، فوجدت نفسي راشداً، محبوساً في وظيفة جعلتني أعدّ الأيّام التي تفصلني عن عطلة الصيف.

على الرغم من الضغوط المجتمعيّة، تجرّأتُ على التخلّي عن شهادتي الأولى في إدارة الأعمال، وأعدت توجيه مساري نحو العمل الإنسانيّ. كنت أبحث في اكتشاف تأثير دمج المسرح في الطرق التعليميّة لمساعدة التلاميذ على التعامل مع الظلم الذي كانوا يواجهونه، من خلال تمكينهم من استكشاف أنفسهم كفنانين، وإطلاق العنان

لإبداعهم. وقتذاك، في أحد الصفوف، سألني تلميذي: "ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟" ضربني هذا السؤال في الصميم، فعرفت أنني أستحق أكثر ممّا أنا عليه؛ أردت أن أصنع الفنّ.

في ذلك الوقت أدركت أنني كنت أدفن استيائي. أدركت أنني أبحث باستمرار عمّا يشغّني، لكن ذلك لم يوصلني إلى أيّ نوع من الراحة النفسيّة. ذلك لأنني كنت أجلس على طاولة كان من المفترض أن ألقبها. مع الوقت اتضح لي أنني سجنّت ذلك الطفل الصغير. ذلك الفنان الغريب في داخلي.

أردت الطيران لكنني لم أستطع. كنت خائفاً من الإنصات إلى قلبي. كنت خائفاً من الصعود إلى المنبر وأنا مجرد ورقة أخرى في مهبّ الريح. الوجود في هذا العالم محفوف بالمخاطر، لكن المخاطر أكبر حين يبحث الإنسان عن المعنى من خلال الفنون، في لبنان وفي العالم العربي، وربما في كلّ مكان آخر. لكن واقعيين. قد لا تكون الاحتمالات في صالحنا. قد ينتهي بنا الأمر من دون القدرة على الحصول على سرير في مستشفى لو احتجنا لذلك. لكن على الرغم من هذه التحدّيات المحتملة، تجرّأت على اللحاق بقلبي. أنا محظوظ لأنّ أحلامي أكثر شجاعة من مخاوفي. أنا محظوظ لأنّ الطفل الصغير الذي نما كان دائماً أقوى ممّا كنت أعتقد.

أعاد سؤال تلميذي توقّد أحلام طفولتي وحفّزني على الانضمام إلى كليّة الفنون في الجامعة اللبنانيّة للحصول على إجازة في المسرح. كانت أيّامي مليئة بالعمل، لكنّ التعب هجرني، لأنني وجدت الرضا في اتّقاد شغفي، ولحسن حظّي، أثمر جهدي.

في العام 2020، وفي عزّ الأزمة الاقتصاديّة والثورة وتفشّي وباء كورونا، تخرّجت من تخصّص المسرح، متفوّقا على من في دفعتي. تفوّقت على من كانت موهبتهم تفوق موهبتي، فقط لأنني آمنت بقدراتي.

حينذاك لم أكن أعلم أنّ اختبارات وتجارب أعظم كانت تنتظرنني. فبعد انفجار مرفأ بيروت، أصبح كسب العيش تحدّيّا كبيراً لي، أنا، شبه الفنّان والمدرّس. فلكي أتمكّن

من تأمين مصاريفي، بدأت أكتب مسرحياتي الخاصة وأبحث عن تمويلٍ لعرضها. لا أذكر هذه المساعي على سبيل التباهي، بل كي أبين التحديات الكبرى التي واجهتها في سعيي إلى حياة كريمة. بدت الأمور كلها تحت السيطرة إلى حين اندلعت النزاعات في حيّ مدرستنا، وسرت شائعات عن احتمال وقوع حرب أهلية. أمام هذا الوضع المضطرب، اخترت على مضض أن أعطي سلامتي الأولوية. لذا، قبلت منحة كاملة لأدرّس وأتابع دراستي في الولايات المتحدة الأميركية.

في حين كان من المفترض أن يكون ذلك حُلماً يتحوّل إلى حقيقة، نخرَ شعورُ الذنب عظمي لأنني تركت ورائي موطني ومسيرتي الفنية المحلية وفريقي وأحبائي. اليوم، أنا أدرّس باللغة الإنجليزية، وأمثّل باللغة الإنجليزية، وأجني مدخولاً جيّداً من الدولارات الأميركية، لكنني لست راضياً. يتساءل الناس لمَ أنا لست أكثر سعادة، أو لمَ أنا لست سعيداً في الأساس. لأنني، في الظاهر، أملك كلّ شيء - حياة خلف البحار، وهي رغبة يتوق إليها الكثير من الشباب العرب. لكنني تركت ورائي الكثير. لربّما هذا شعور يتعلّق بجيلي، لربّما نحن أشخاص غير واقعيين ونتوق إلى المزيد باستمرار، ونريد لأنفسنا أفضل ما في كِلا العالمين.

وهل ما نطلبه كثير علينا؟ هل كثيرٌ علينا أن نطلب ما يملكه الآخرون من حول العالم - فرصة أن نبقي في المكان نفسه مع الأشخاص الذين كبرنا معهم؟ اليوم وأكثر من أيّ وقت مضى، أحنّ إلى دفء وطني وشمسه وأهله وحضنهم. شعور الوحدة يخنقني، وأنا أعدّ بفارغ الصبر الأيام ليلتَمّ شملي بأصدقائي. إنّه لأمرٌ مُحير أن يُصبح كلّ ما في موطنك جذّاباً وساحراً حينَ تبتعد عنه، حتّى انقطاع التيار الكهربائي والطرق الوعرة والفوضى. اشتقتُ لذلك كلّ حينما أحاول أن أشقّ طريقي في ظلّ شتاء رماديّ الضباب يبدو أبدياً. ها أنا هنا أحتنق، أتوق إلى حضن آخر، إلى قبة أخرى. أشعر مع أمّ تقف في المطار وهي تراقب ابنها يختفي وراء بابٍ دوار. أشعر مع صديق يُخفي دموعه، أشعر بك يا جدّتي وأنتِ تُمسكين بيدي. لكنّ أخوف ما أخافه هو أنني قد لا أراكِ ثانيةً.

لا تقولوا لي إنّ الأمور بخير أو إنّني محظوظ، فأنا ألعن الأيام التي بعثرتنا أو نثرتنا في هذا العالم الواسع. لا أريد العودة إلى نزهاتي الوحيدة أو أحاديثي مع نفسي عند استقلالي القطار. أريد أن أعود إلى المكان الذي يفهم فيه الناس نكاتي، المكان الذي تحلّ فيه الصداقات الحقيقية محلّ تلك الافتراضية ومكالمات الفيديو. أريد أن أحتضنكم، وأرقص معكم في الأعراس وأبقى في جانبكم في الأحزان، حتّى أنفاسكم الأخيرة.

أتوق إلى تلك الأيام التي كان يطرق فيها الناس بابي ببساطة ويدخلون منزلي، حين كانت روائحهم وخصلات شعرهم البضاء ونمش وجوههم متشابهة. أحنّ إلى قهوة أمّي، وإلى الاستمتاع يوم الاثنين بما تبقى من أطباق يوم الأحد. لقد تغيّرت الحياة، وأصبحت كلّها يوم أحدٍ خالٍ من الكبة والتبولة... بعيداً عنّ أحببت وقريباً من كآبة الموت.

لا أريد سوى أن نجلس معاً على سطح منزلي المطلّ على بيروت، أريدكم أن تطمئنوني أنّني لست وحيداً في هذا العالم، أنّكم أنتم أيضاً تائهون، تشاركونني ألم عدم الانتماء إلى أيّ مكان. أتمنّى لو لم أكن مجبراً على المغادرة، عالماً بين الحرية والأمان، وبين الأفكار والأمنيات. جميعنا نضحيّ بأمرٍ لنكسب آخر، لكنني أشتاق إلى الأمور كلّها، والآن، أكثر ما أشتهيه هو غمرة تضمّني.





أريد أن أعيش

جاد دوماني

جاد دوماني أكاديمي لبناني أمريكي، رشح من قبل جائزة
آيزنر لل "الإنجاز الإبداعي" للحصول على درجة الدكتوراه
في سكتلندا. ظهرت كتاباته في العديد من المنشورات منها
بنس انسيدر، نيوزويك، آفاق غربية، مراجعة قريفيث،
مجلة الملكة الفصلية.

هل بإمكان المرء أن يبنى مستقبلاً في بلدٍ يبدو أنه لن يكون موجوداً عندما يحلّ هذا المستقبل؟

كان وضع عائلتي الماليّ على وشك الانهيار حين حدث في بيروت ما لم يكن في الحسبان. أعلنت وزارة الاقتصاد سماحها لمحلات السوبرماركت التعامل بالدولار، ممّا يعني أنّ حاجياتنا أصبحت تُسعر بالدولار الأميركيّ بدلَ الليرة اللبنانية. ففي ظلّ انهيار لبنان الاقتصاديّ، كالتفاوت في أسعار صرف الدولار مقابل الليرة اللبنانية، في السوق السوداء، يتيح لنا أن نبقي قادرين على شراء لوازمنا الأساسيّة حتّى بعد أن خسرنا مُدخرات حياتنا. وبفضل المبلغ الذي سمح لنا مصرف لبنان المركزيّ بسحبه كلّ شهر، ومدخوليّ الذي أجنّبه من عمليّ ككاتب مستقلّ لصالح عدد من المجالات ووكالات الأنباء الأجنبية التي كانت تدفع لنا بالدولار الأميركيّ، نجحنا في تأمين كفافنا. لكنّ الأجر الضئيل وصعوبة سحبه من المصارف نتيجة إضرابها، جعلاً العمل هدرًا للوقت وغير مُجزٍ.

أنا من مواليد نيويورك، ممّا منحني الجنسيّة الأميركيّة، لكنني لم أزر الولايات المتّحدة الأميركيّة سوى مرّة واحدة منذ ولادتي. تخرّجتُ من جامعة محلّية، حاملاً إجازة في دراسات الأعمال، ومعنى ذلك أنّني لن أستطيع الحصول على وظيفة في منطقتي إن لم أملك العلاقات الصحيحة، خاصة وأنّني قد تخصّصت في مجالٍ يجعل الهجرة إلى الغرب صعبة نظراً إلى تشبع سوق العمل فيه بخريجين من ذوي الشهادات التي تمنح

حاملها مهارات ناعمة مُشابهة. إلا أن الوضع في بيروت كان مُوجعاً. فالبطالة الجماعية في صفوف الشباب والفقاعة العقارية عَنيتا أنني لن أستطيع الانتقال من منزل أهلي إن لم أؤمن دخلاً ثابتاً بعد التخرج، لذلك اضطررتُ إلى البقاء مع أمي الأرملة التي أصبح راتبها كطبيبة أطفال يساوي، في غضون بضعة أسابيع، حُفنة من الدولارات كل شهر. وما زاد الطين بلةً هو أن أزمة الكهرباء المُستمرة أدت إلى انقطاع التيار الكهربائي عن شقَّتنا أغلب النهار وطوال الليل. وكانت ليالي الصيف تحديداً هي الأصعب، نظراً إلى أنني وأمي نعانين ارتفاع ضغط الدم، وإلى أن جانب شقَّتنا المُواجه للشمس كان، في معظمه، عبارة عن شبايك. لم أستطع حل هذه المشكلة إلا بعد أن دفعْتُ أغلب مدخوليتلك السنة لأركب وحدة UPS لتمدنا بالكهرباء بشكل غير متقطع ولأغطي ما تلا ذلك من نفقة إصلاح ألواح الكهرباء والبطاريات بسبب الأعطال الناجمة من تواصل انقطاع التيار الكهربائي. وظهرت مشاكل أخرى إذا أردنا الحديث عن انفجار بيروت وتفشّي وباء كورونا ونقص المواد الغذائية وانقطاع الأدوية، ممّا أنهكنا جسدياً ونفسياً وعاطفياً إلى حدّ نشوب الشجار، يومياً، بيننا حول الأمور المالية.

وبعد أن كنت قد شعرتُ بأنني أحكم قبضتي على مُجريات حياتي، عقب فترة عصيبة استمرت سنوات، أُلقيتُ مجدداً فيحالة من الدُعر الدائم، أحاول بائساً أن أجد حلولاً لمشاكل لا سيطرة لي عليها. وفي كلّ مرّة أشعر بالفخر بالإنجازات التي حققتها ككاتب منذ بداية مزاولتي هذه الحرفة، يجرّني الوضع في لبنان إلى الأسفل. مذكراً إياي أن كلّ فرحة نجاح وكلّ خطوة أخطوها نحو تحقيق أحلامي، قد تسلبني النّخبة المالية والاقتصادية اللبنانية إياها بلمح البصر. لم أعد قادراً على استيعاب أن عليّ أن أعيش بقيّة حياتي تحت هذه الأوضاع، حتّى وإن ذكرّني جميع من حولي بالحاح أن هذا هو نمط العيش الوحيد في لبنان. أصبح من الصّعب العمل الآن، وأن كلّ ما أعمل لأجله هو جني المال الكافي لأبقى على قيد الحياة لما يكفي من الوقت لأكمل جني المال وأن أبقى على قيد الحياة مدّة أطول فقط. لا أريد أن أبقى على قيد الحياة فقط. أريد أن أعيش. لكنني أصبحتُ الآن رجلاً يأمل أن يبنى مستقبلاً في بلدٍ يبدو أنه لن يكون موجوداً عندما يحلّ هذا المُستقبل.

في خضم هذه الفترة، نجحت أختي التي ولدت، مثلي، في الولايات المتحدة الأميركية وأمضت حياتها كلها في لبنان، في تغيير حياتها بعد أن منعتها أزمة السيولة من دخول الجامعة، وتقبّلت، مُكرهَةً، احتمال أن تبدأ العمل فور تخرجها من الثانوية. فقد استطاعت الحصول على منحة كاملة تغطّي كافة مصاريفها لدخول جامعة كارنيجي ميلون في بيتسبرغ. لم يكن من السهل على أختي أن تكون نفسها في الولايات المتحدة الأميركية في تلك الفترة وإن قدّمتها العائلة كلّ ما قدرت عليه من مساعدة، إلاّ أنّه، للأسف، لم يكن كافياً لتسهيل مرحلة الانتقال التي كان عليها أن تخوضها وهي لا تزال صغيرة في سنّ السابعة عشرة. على الرغم من ذلك، استطاعت أختي أن تكون نفسها هناك وبموارد أقلّ من ضئيل الموارد التي كُنّا نملكها قبل أن تبدأ كلّ تلك الأزمات. ومن قلب الشرق الأوسط، نظرنا إليها بفخر وهي تنجح في بلد جديد، بعيداً عن المعاناة اللامتناهية التي أمساها العيش في بيروت. وعلى الرغم من أنّها كانت تحبّ لبنان وأرادت البقاء فيه، فقد كانت واعية كفاية لتدرك أنّ وطننا لم يعد قادراً على مدّها بالحياة الكريمة التي أرادتها لنفسها.

بمرور الوقت، سادرك ذلك أنا أيضاً.

على الرغم من تأكيدي المتكرّر على مسامع أصدقائي وعائلتي أنّني سأنجح بالبقاء هنا، أدركت أنّ هذا مُستحيل في ظلّ الظروف الراهنة. ولطالما عرفت ذلك، في قرارة نفسي، لكنني كنت أمل أن يخضع من يدّعون أنّهم حُكّامنا لضغطٍ كافٍ يدفعهم إلى تحسين الوضع ليصبح محتملاً، ولكن، بعد سنوات وسنوات من الانتظار، لم يخط هؤلاء ولو خطوة أولى. والآن، بعد أن أصبحت حاجياتنا الغذائية تُسعر بالدولار، لم أعد أستطيع التحمّل على الإطلاق. ضاعت سنوات مُراهقتي والعشرينات من عمري على وعودٍ كاذبة بحلول زائفة لمشاكل كان حلّها ممكناً في منتهى السهولة. إن لم يدين لنا حُكّامنا بإيجاد مخرج لهذه الأزمات التي خلقوها بأنفسهم، فأنا مدين لنفسي بإيجاد مخرجٍ لي من لبنان. وهذا ما فعلت. اشترت تذكرة ورحلت إلى بيتسبرغ لأكون

مع أختي. وفجأة، تلاشت سنوات القلق والشك في قدرتي على النجاة هنا، واكتشفت في نفسي قوة متجددة لم أكن أعرف أنني أملكها.

فإن استطعت النجاة في بيروت، تستطيع النجاة في أي مكان.





عد إلى بلدك

أمين أبو قاسم

أمين أبو قاسم مصور وثائقي وسينمائي فلسطيني - سوري،
مقيم في بيروت. تستكشف أعماله الجوانب أنماط الحياة
السامة ومعادلات أساليب البقاء على قيد الحياة. شارك
في العديد من المعارض وحصل على العديد من الجوائز
والمنح المرموقة.

هل بإمكان "العودة إلى الوطن" أن تكون نزوحًا؟ وأن يُلقب المرء فيه "غريبًا"؟
هذا ما عشته، أنا أمين أبو قاسم.

لم تبدأ حكايتي مع الهجرة والنزوح عام 1998، عام ولادتي في مخيم اليرموك، بل بدأت عام 1948، حين أجبر الاحتلال الإسرائيلي عائلتي على مغادرة صفورية، القرية الصغيرة الواقعة في ضواحي الناصرة بفلسطين، لتصل إلى سوريا سيرًا على الأقدام. هكذا، بُتُّ واحدًا من ملايين الفلسطينيين المُهجّرين في أرجاء العالم، المحرومين من أبسط الحقوق: حق العودة إلى أرضهم.

في سن الرابعة، خضتُ تجربة النزوح الأولى. يومذاك أرسلتُ إلى عمّتي المقيمة في المملكة المتحدة أملًا في أن أتنعم بحياة أفضل إلاّ إنني لم أبقَ هناك سوى ثلاثة أشهر، لأرسل بعدها إلى أميركا، حيث تقيم عمّتي الأخرى.

بقيت هناك حتّى السادسة من العمر. أدركت عائلتي التي بقيت في دمشق أنّ ترحيلي في هذه السن المبكرة كان قرارًا خاطئًا، فقرّرت أن تعيدني إلى الوطن البديل الذي أصبح بمثابة البيت. فعشتُ، يا للمفارقة، نزوحًا جديدًا. عدت غريبًا، ألقُب بالأجنبيّ في المكان الذي ينبغي ألاّ أكون فيه غريبًا، لأنني أشارك أبناءه الهوية نفسها والانتماء نفسه.

بقيت في مخيم اليرموك حتى سنّ الثالثة عشرة، ثم اضطرت إلى هجره بسبب الأوضاع المتردية، وبعد أن قصفت طائرة من طراز "ميغ" مدرسةً ومسجدًا في 16 كانون الأوّل/ديسمبر من العام 2012. حينذاك، سكنت مع والديّ في دمشق، مكان آخر لُقبْتُ فيه بالغريب أيضًا، فالشرح الثقافي حاد والانفصال شبه كليّ بين سكان المخيم المماثل لمدينة صغيرة محصورة بسكانها ودمشق المدينة الأكبر. كنت كمن يتعرف على ثقافة جديدة ومجتمع لم أكن على تماس مباشر معه.

لكنني، كنت هذه المرّة، "لاجئًا"، وليس "أجنبيًا".

بمرور الوقت وتراكم التجربة، انخرطُ في السّاحة الفنّية السّوريّة. تواجدت فيها دومًا، لكنني لم أشعر يومًا بالانتماء إليها، وذلك بدءًا من النّكتة السّمجّة التي يطلقها أصدقائي عليّ وتقول "أنت لست من هنا، عد إلى بلدك"، وصولًا إلى الأشخاص العنصريّين فعلاً الذين يقولون "أنت لست من هنا، عد إلى بلدك".

على الرّغم من ذلك، استطعت أن أترك بصمتي كفنان على السّاحة السّوريّة. وإن كنتُ أشعر دومًا بالاستبعاد. فالتّفاصيل اليوميّة الصّغيرة جعلت من المُستحيل ألا أكون حسّاسًا تجاه وضع السوريين.

تركْتُ منزل والديّ في نهاية العام 2018، بعد أن خضت معهما جدالًا طويلًا حول خيارات حياتي. لم يكن الطّريق واضحًا أمامي، فعشت تجربة الزّوج، مرّة أخرى، في "مسقط رأسي".

بعد أربع سنوات، تركت تخصّص هندسة تكنولوجيا المعلومات، وقدمت طلبًا للالتحاق بالمعهد العالي للفنون المسرحيّة في نهاية 2019، وانخرط في عالم التصوير بشكل أكثر احترافيّة. وبدأت، في السنوات التالية، بعرض أعمالتي على مستوى عالمي. فحصلتُ على الكثير من فرص الإرشاد والمنح والجوائز من مؤسسات كبيرة، من مختلف أنحاء العالم، مما أدّى إلى جذب انتباه عيون غير مرغوب فيها إليّ.

لهذا، وتحسبًا لما سيأتي، اتخذت القرار في يوليو/تمّوز من العام 2023، بالانتقال إلى بيروت بحثًا عن بيئة آمنة. ولأنني فلسطيني - سوري، كان من المستحيل أن أحصل على إذن إقامة. انتقلت، إذًا، إلى لبنان، مدركًا بأنني سأكون في موضع الخطر نفسه، بل في خطر من نوع جديد لم أكتشفه بعد. وهو خطر النزوح غير الشرعي.

طوال السنوات الماضية، لم يفارقتني الإحساس بأنني في رحلات الهجرة العديدة التي خضتها، كنت أعيش حياة تدور حول الهوية المزدوجة التي أحملها.

أمّا اليوم، فأجد نفسي أقف متسائلًا عن نوع الحياة التي كنت سأعيشها، لو أنني وُلدت في مكان آخر. هل كنت سأمتلك منزلًا عائليًا تحده قطعة أرض صغيرة؟ هل كنت سأتمكن من قضاء أيام العطلة في وطني؟

وفي كل مكان جديد، أتوقّف وأسأل: "ما الوطن؟" لكنني لا أستطيع العثور على إجابة، وإن كنت أعرف أنني /إننا حُرمنًا من حقنا في الوجود. طُردنا من قُرانا وسُمينا "لاجئين". سُلِبنا جنسيّاتنا وشَتّونا في أرجاء العالم.

إلا إننا، على الرّغم من كلّ الصعوبات الهائلة، نواصل العمل والإبداع، لأننا نحمل في دواخلنا بذرة فريدة من نوعها، اسمها مقاومة، تتجذّر وتنمو وتنمو، لتتبرعم بأشكال مختلفة. ونحن، أينما كنّا، مؤتمنون عليها.

لهذا، لو خُيّرت من أيّ بلد أكون، لاخترت فلسطين مليون مرّة.

فهل هذا هو الجواب على "ما الوطن؟"



في ظل الفتاة الصغيرة

ميسرة ساسي

ميسرة ساسي ليبية. حاصلة على ماجستير في سياسات الشرق الاوسط، وعملت باحثة ومستشارة إدارة مشاريع في إسبانيا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة.

أذكر

يومَ اشترتني على عجلٍ مالِكْتِي المُستقبليّة من متجرها المُفضّل للمستلزمات المكتبيّة، ألا وهو مكتبة ساه في طرابلس في ليبيا. فبعد أن تذكّرت مالِكْتِي شرائي في وقت متأخّر من المساء، قُيِّل موعد إغلاق المتاجر، هرعت ووالدها لشرائي، تلبيةً لطلب معلّمتها. قالت مالِكْتِي لوالدها بحماسة: "بابا، أريد هذه!" وسبب شرائي يعود إلى متطلّبات المنهج الدّراسي الوطني. في ليبيا، كان من المعتاد أن تقوم المدارس بتعليم تلاميذ الصّف الثّاني، من أمثال مالكتي التي كانت تبلغ من العمر سبع سنوات آنذاك، أهمية الواجب الذي سأمثله فيما بعد. حين غادرت مالكتي ووالدها المتجر بصحّتي، ساورني الشكّ في ما إذا كانا يستطيعان التنبؤ بالرحلة التي سأنطلق فيها مع هذه الفتاة الصّغيرة، لأنّ السنوات اللاحقة صعب على أيّ مواطن ليبي عادي استيعابها.

على مرّ السنوات الأربع التّالية، شهدت حياة فتاة صغيرة عاديّة: على أسرارها البريئة، ورحلة ارتقاؤها إلى أختٍ كبرى، والمدّ والجزر في تكوين صداقاتها. كانت مالكتي تثق بي، وتفصح لي يوميّاً عمّا في قلبها باللّغة العربيّة، لغتها الأم ولغتها الوحيدة. وسرعان ما تعرّفت موهبتها في العزف على البيانو وعلى أفراد عائلتها الكبيرة والمحبة الذين دائماً ما كانوا يدوسون عليّ، كما تعرّفت مراد أمنيّتها في أن تشارك في برنامج أطفال "عيش سفاري" على قناة MBC3.

حين بلغت مالكتي سنّها الحادي عشر، فهمتُ، للمرة الأولى، أهميّة وجودي فعلاً. ثم أهدق النّزاع بليبيا، وراح يقترب تدريجيّاً من طرابلس، من البيت. وزادت حدّة التّوتر،

فأخذتني مالكتي معها إلى منازل جديدة؛ لجأنا إلى منازل أقارب مالكتي، حيث كانوا يواسون بعضهم بعضاً عند فقدان الأحبة وإخفائهم، وفي ظلّ القلق المتواصل الذي أرحى ظلاله على أيامنا كلّها. ومع مضيّ الأيام، راح وقع أقدام عائلتها الدائسة عليّ يخفت، وحلّ محله صمت مطبق على الأرواح التي أزهقها العنف المتواصل الذي اجتاحت الشوارع. شهدت مالكتي فقدان أقاربها وجيرانها ومعلميها فقداناً يفطر القلب، كما شهدت انقساماً لم تعرف له مثيلاً في مجتمع ظنته عائلةً واحدة.

بعد أشهر من النّزوح المتكرر، عدنا أخيراً إلى منزلنا، لكنّ عالمنا ازداداً تحطّماً. حين فتح والد مالكتي قناة الأخبار، ورأينا الدخان يتصاعد من ركام كان قبل ساعات بيت جدّها. غارة جويّة واحدة حوّلت مأوى العائلة إلى رماد، وحصدت سبع أرواح، منها أرواح ثلاثة أبناء عمومة رُضّع قبلتهم مالكتي في الأمس قبل المنام. أخذتني الرّعدة وبلّلت دموع حزنها المنهالة مدراراً خيوطي. لم تُبدِ الحرب ذرّة رحمة، وحرمتها من أفراد عائلتها وأحبائها في انفجار ناريّ واحد.

بعد فترة وحيزة من وقوع هذه الفاجعة، دخل والد مالكتي إلى غرفتها وطلب إليها بهدوء أن تحزم حقيبتها، فقد تهيّؤوا لمغادرة البلاد. اعترتها صدمة شديدة، ولم تعرف كم من الأشياء وأيّاً منها عليها أن تحزم، فأمسكت بي أولاً، ووضعتني في قعر الحقيبة. ومنذ ذلك الحين، وأنا أشعر بثقل عالمها يضغط عليّ، إذ شرعنا في رحلة نحو وجهة غامضة، ونحو مستقبل أكثر غموضاً.

الفصل الأول

كانت وجهتنا الأولى جربة، في تونس. أخرجتني مالكتي من حقيبتها في غرفة فندق صغيرة تقاسمتها مع أخيها وأختها الصّغيرين. كانت مالكتي تعرف جربة وجهة لقضاء أيام العطل مع عائلتها، كعطلة نهاية أسبوع سريعة على شاطئ البحر، ولم تعرفها ملجأ. كانت غرابة محيطنا واضحة وضوح الشّمس، ولزوم مالكتي الصّغيرة الفندق في الصّباح شوّش ذهنها. كان التناقض عصياً على الإنكار - لقد اعتادوا زيارة هذا المكان

في المناسبات السعيدة، إلا أن زيارتهم هذه المرة كانت نتيجة سبب لا يمت للفرح بصلة. راحت مالكتي تراقب العائلات من حولها تضحك وتحتفل، في حين تُكابد عائلتها وزر الفقد. في تلك اللحظات، أدركت مالكتي أنها تحتاج أن تكون جسراً بين عالم الرشد وعالم الطفولة، وأن تأخذ على عاتقها مهمة تسليّة أخويها الصغيرين، وأن تستوعب، في الوقت عينه، معاناة والديها. تزورني كلّ يوم، لكنّها قلّما تفتح لي قلبها. تساءلتُ أكان سبب ذلك هو تقاسمها الغرفة مع أخويها؟ أم أنّ ثقل حملها أعجزها عن التعبير؟ وسرعان ما أفهمني انقطاعها عن أحاديث الطفولة أنّ الفتاة أُجبرت على التّضجج باكراً.

الفصل الثاني

شهد المغرب فترة انتقالية. حين استقرّينا في الرّباط، صعب على مالكتي الاندماج في المجتمع. ألحقت بالمدرسة في منتصف السنة، فوجدت نفسها هائمة في بحر من وجوه غير مألوفة، وفي دوامة من الدّروس باللّغتين الإنجليزيّة والفرنسيّة المُسبّبة للدّوار، تصارع المزيد من الصّعاب. في هذه المرحلة من حياة مالكتي الصّغيرة، بللّني دموع إحباطها من علاماتها المتدنيّة، ومن الوحدة من دون أصدقاء، ومن تعليقات زملاء صفّها اللاّذعة. وقد شهدت على شعورها بالذّنب من تركها عائلتها وعلى حنينها إلى وطنها. ومع ذلك، كلّ يوم كانت تحدّثني فيه، ذكّرتها بكلّ ما خلفته وراءها، لأبثّ فيها العزيمة والإصرار.

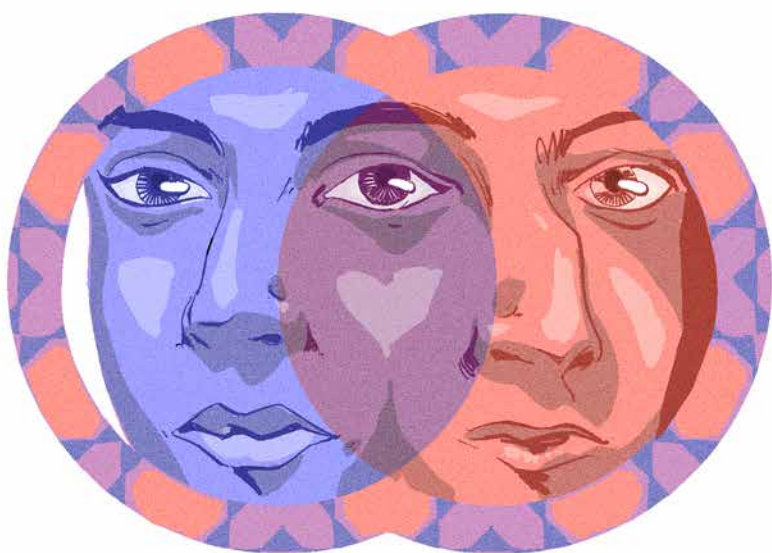
الفصل الثالث

كانت إسبانيا فصلاً محوريّاً، يعكس مرونة مالكتي وقدراتها وقناعتها الرّاسخة. راقبتها وهي تتحوّل من فتاة صغيرة إلى شابة قويّة، تنقلّب من غريبة مهمّشة إلى ناشطة مُفعمة بالقوّة. ومن حواراتنا المُعقّدة في آخر اللّيل، استمعتُ لقصصها عن مواجهة الكراهية والتمييز، ولصدى يفطر القلب عن فاجعة أبناء أعمامها الصّغار في ليبيا. وفيما اذا كان هرج الفوضى في الوطن يتناهى إلى مالكتي عبر المسافات، اشتدّت عزيمتها أكثر فأكثر. وفي تلك اللّيالي، بدأتُ أسمعها تردّد أدعيّتها بلغاتٍ غريبة عني، تنسجُ دعواتٍ

صادقة باللغات التي اكتسبتها على طول المسير. زاد التزامها بالدفاع عن حقوق الإنسان خلال هذه الفترة، واستشهدت برحلتها وتجاربها، فنجحت في دراسة العلاقات الدولية بامتياز. ثم بدأ صدى صوتها يتردد داخل قاعات المحافل الأكاديمية وأروقة الناشطين، فامتصت خيوطي كُنه روحها الثابتة وقناعاتها الراسخة.

الفصل الرابع

غامرت مالكتي بالسفر إلى مدينة لندن، فكانت فاتحة فصل آخر من رحلتها - إلا أن خيارها هذه المرة لم يكن رد فعل على الظروف الطارئة بل كان عن سابق إصرار وتصميم - وبقيت رفيقتها المخلصة، والشاهدة الكتومة على تجاربها في الحياة وانتصاراتها. وعلى مدار أكثر من عقد من رحلة الهجرة عبر القارات، كنت موضع اعترافاتها، وصلواتها، ومحادثاتها الصامتة معه جلّ جلاله. صحيح أنني أدلي بشهادتي عن كلّ مرحلة من مراحل رحلة مالكتي، لكننا، كلانا، نتطلع إلى يوم تبدأ فيه ليبيا مسار عدالة انتقالية مُجدية، وتعدّد محادثات حاسمة للمّ شمل مجتمعها المُشرذم. إنّ الجالية الليبية، المُشتتة في جميع أنحاء العالم، قادرة على ردم الفجوات والمساهمة بشكل كبير في إحياء الوطن. نتوق إلى يوم تُعلّى فيه أصوات المهمّشين، وتُصان فيه العدالة وحقوق الإنسان، ويصبح الوعد بإقامة ليبيا موحّدة ومزدهرة حقيقةً. وكما أنا ومالكتي تشاركنا رحلة من التجارب والانتصارات، كذلك الشباب الليبيّين الآخرين، فأنا أعلم أن كلاً منهم خاض الرحلة نفسها مع سجادة صلاته.





غربية في وطني

أمنة السلاك

أمنة السلاك ليبية مقيمة في كوالالمبور، ماليزيا.
عملت مع العديد من المنظمات الدولية التي
تركز على تمكين المرأة ودعم المجتمعات النازحة
والمهجرة وتعزيز الوعي على الصحة النفسية والتمكين
الاقتصادي والعدالة الاجتماعية.

إن الهوية الاجتماعية هي إحساس الشخص بمن هو على أساس انتمائه إلى مجموعة معينة أو انتماءاته إلى مجموعات معينة - نظرية الهوية الاجتماعية.

قبل خمس سنوات، كنت أعمل في منظمة دولية إنسانية غير حكومية في بنغازي، حيث كنت أزور يوميًا مخيمات النازحين داخليًا. ومن الأمور التي لفتت انتباهي كانت مجموعة من الفتيات. كنّ دائمًا مكتئبات. حدّثتهنّ مرارًا لأفهم مشكلاتهنّ ولأرى كيف يمكنني مساعدتهنّ. تبين لي أن مشكلاتهنّ كانت مع المجتمع المضيف، فقد واجهنّ صعوبة في الاندماج فيه وشعرنّ بالخجل من نزوحهنّ. حاولت أن أدمجنّ وأشجّعهنّ كي يتمكنّ من الاندماج في المجتمع، لكنهنّ ظللنّ يُخبرنني أنّ الناس لن يتقبّلوهنّ. وقتذاك، لم أفهم هواجسهنّ أو لم أستطع أن أجد لها تفسيرًا، لأنني، نفسي، لم أجد مشكلةً في التواصل معهنّ. وفي الوقت نفسه، تساءلْتُ عن السبب الذي يجعلهنّ يشعرنّ كذلك.

من مدعاة السخرية أنّي، بعد 3 سنوات، اختبرت أول مرّة ما كانت تلك الفتيات يتحدّثن عنه وفهمت شعورهنّ، كوني أجبرت على النزوح داخليًا بسبب الصراع الذي بدأ سنة 2014 في بنغازي. أدركت أنّ الناس، حين ينزحون، تنزحُ هويّاتهم معهم أيضًا. وعلى الصعيد الاجتماعي، يتمّ تصنيفهم تحت فئات مختلفة، وغالبًا ما يتعرضون للتمييز، من قبل المجتمع بشكل عامّ، والمجتمع المضيف على وجه التحديد.

الصراع في بنغازي ليس مجرد عملية عسكرية تستهدف الإرهابيين؛ بل هو صراع اجتماعي، سببه التوتّرات القبلية والطبقية، مثل تلك الموجودة بين القبائل الشرقية

والعائلات من الغرب، وبين القبائل الشرقية نفسها، وبين النخب الحضريّة والفقراء الريفيّين. هذه الصراعات دمّرت النسيج الاجتماعي للمدينة. تهجّرت مع عائلتي إلى مدينة مصراته، وهذه الهجرة الداخليّة لم يرحّب بها هناك. لا أستطيع لوم مدينة بأكملها، لأنّ هذا الوضع غير مألوف لدى سكّانها؛ فهم بحدّ ذاتهم كانوا يخافون من فقدان النسيج الاجتماعي لمدينتهم، وكانوا يهابون نشوب الحرب. إلّا أنّ خوفهم تمّ التعبير عنه بطرق مختلفة، عشتها في عدّة مواقف شعرت خلالها بأنّي غربية في وطني. كان أبناء المجتمع المضيف يمطرونني بشتّى الأسئلة أينما ذهبت، في النادي الرياضي وفي المستشفى وفي مكان عملي. كنت أعمل في المجال الإنساني في منظّمة أطباء بلا حدود ومنظّمات أخرى. من الأسئلة التي كانت تُطرح عليّ: من أين أنت؟ هل أنت ليبيّة؟ لم آتِ إلى مدينتنا؟ هل أصولك من هذه المدينة؟ هل لديك أقارب هنا؟ كنت دائماً أحتار بما عليّ أن أجيب. هل أخبرهم قصّة حياتي؟ هل أخبرهم أنّي ليبيّة مثلهم؟ أم أتجاهل أسئلتهم؟

في الوقت نفسه، كنت أتساءل أيضاً: إلى أيّ جزء من هذا البلد أنتمي؟ وإلى أيّ جزء من هذا المجتمع أنتمي؟ في الواقع، لم تكن أسئلتي مهمّة لأنّني قد صُنّفت فتاة نازحة. كان الناس يُنادونني بالنازحة أو بالشرقاوي، أي الفتاة القادمة من الشرق. كنت دائماً أناقش والدي حول سبب اضطرارنا للعيش في الظلّ، أو كما أسمّيه "في العالم الموازي"، حيث يجب على الناس أن يتعاملوا مع صدمة نزوحهم، إلى جانب كفاحهم للعثور على هويّاتهم وسط المجتمع المضيف الجديد، وفي الوقت الذي يواصل الجميع تذكيرهم بأنّهم غرباء، فيتعرّضون لتعنيفٍ عاطفيٍّ لمجرّد أنّهم نازحون.

بعد مرور 3 سنوات من المعاناة والحيرة في شأن هويّتي الاجتماعيّة، ومن مراقبتي السلوك الاجتماعي لأهل المجتمع المُضيف، قرّرت المضيّ قدماً وتجاهل التسميات الاجتماعيّة التي أعطانا إيّاها الناس.

"الوطن هو دائماً في مكان آخر. الوطن هو "هنا" و"هناك" أو ما بينهما. وأحياناً لا يكون للوطن مكان." - غوميز بينيا.

في ما يلي، بعضٌ من أفضل الطرق التي وجدتها للتغلب على أزمة هويتي الاجتماعية في الزواج:

1. وجدتُ أنَّ التعاطف في قلب النزاع وانعدام الأمان ضروريّ. العدائية المتكررة التي كنت أواجهها في الأماكن العامة أو في العمل، كانت تشعرني بالإهانة، وتجعلني أتساءل عن سبب معاملة الناس للغرباء معاملة سيئة. على الرغم من ذلك، قرّرتُ الاعتناء بنفسي لأنني لا أستطيع تغيير الواقع ولا آراء الناس، لكنني أقدر أن أغيّر شعوري تجاه معاملتهم. تعلّمتُ أن أستمع إليهم وأبقي فمي مُغلَقًا، فقد لا أكون دومًا على حقّ. المجتمعات المضيفة هي أيضًا تعاني من نزاعات داخلية، وأبناءؤها يشعرون بالألم والحزن وانعدام الأمان مثلنا تمامًا، وهم يحاولون فقط حماية مدينتهم ومنازلهم وعائلاتهم.

2. استخلصتُ الدروس من الرفض وإطلاق الأحكام. أدركتُ أنَّ الناس سيقولون عليك الأحكام لأسباب كثيرة في جميع الأحوال، وأحيانًا لا تكون المسألة شخصية. الأمر لا يعني سوى أنك لا تنتمي إليهم. تعلّمتُ أن أحب نفسي وأطوّرها، تعلّمتُ أن أصبح امرأة أقوى وأن أعتد على نفسي. تعلّمتُ أن أتوقّف عن إخفاء هويتي والبحث عن أخرى فقط بهدف الاندماج في المجتمع المضيف.

3. توقّفت عن تجنّب التحاور مع أبناء المجتمع المضيف. قرّرتُ أن أعتبرها فرصة أعرفهم فيها إلى ثقافتني وأنشر الوعي حول قضية الأشخاص النازحين داخليًا. أعترف أنني حدّثت عددًا قليلًا من الناس من المجتمع المضيف حول هذا الموضوع، لكن، لا بأس، فهم على أقلّيتهم، أصبحوا أكثر وعيًا حول هوية هؤلاء النازحين. إضافة إلى ذلك، يجب على الأشخاص النازحين داخليًا أن يتذكروا دومًا أنَّهم لا يزالون يتمتعون بحقوق المواطنة، وعليهم أن يكونوا فخورين بهوياتهم.

"لا يهم من أين أتيت، فكلّ ما يهم هو إلى أين تتّجه." - براين تريسي





الوطن الذي يسكنني

ناي غرة

ناي غرة طالبة جامعية لبنانية تعيش في فرنسا. في عام 2021، غادرت لبنان في السابعة عشرة من عمرها، أملًا في بناء مستقبل أفضل لنفسها، وهي تجربة غيرتها من نواحٍ عديدة.

لو أخبرني قبل أربع سنوات أنني سوف أعيش في بلد آخر، لما صدّقتُ ما تسمعه أذناي.

إنّها سنتي الثالثة هنا في فرنسا، ولا أزال أشعر بأنّني ضائعة تمامًا. لا أعرف إلى أين أنا ذاهبة، ولا أعرف حتّى ما أقوم به، وأعتقد أنّ السبب الرئيس لذلك هو أنّني اضطررت إلى مغادرة لبنان في سنّ مبكرة جدًّا. لم أكن قد تجاوزتُ السابعة عشرة من عمري حين اضطررتُ إلى التقدّم بطلب تسجيل إلى جامعات في الخارج، بسبب الأزمات المتتالية في بلدي لبنان، وآخرها انهيار العملة ووضع يد المصارف على أموال الناس. فكان القرار هو سفري، حيث يمكنني التخصّص في المجال الذي أحبه. ونظرًا إلى كوني قد تخرّجت من مدرسة ذات نظام فرنسي، وإلى أنّ فرنسا فتحت، آنذاك، أبواب تسهيل أمور الطلاب اللبنانيين، فقد كانت هي الوجهة الطبيعيّة لي.

لطالما قرأت قصص المهاجرين، لكنني لم أتخيّل نفسي، يومًا، أكتب قصّتي أنا.

لا أريد أن أولّد فيكم انطباعًا بأنّني لست ممثّنة، لأنّني أشعر بالامتنان، حقًّا، في صميم القلب. فقد أتيحت لي فرصة الذهاب إلى بلد مستقرّ في مدينة رائعة، حيث تعرّفت إلى أشخاص مميزين وأقمت علاقات سأعترّ بها طوال حياتي، بالإضافة إلى مواصليتي الدراسة في مجال لطالما رغبت في التخصّص فيه، وهو علم اللغات الأجنبيّة المطبّقة. دراستي تركز على تعلّم الإنكليزيّة والإسبانيّة، إضافة إلى مقدّمة في لغة الصمّ والبكم وعلم الترجمة. حياتي جيّدة هنا. لكن على الرغم من كلّ ذلك، لا يسعني إلّا أن أشعر

بالانفصال عن الواقع، في بعض الأحيان، والغرق في أفكاري، فأبدأ في التساؤل، ماذا لو. ماذا لو احتضني بلدي عوضاً عن فرنسا؟ ماذا لو كنت هناك مع والدي وأخوتي وأصدقائي؟ ماذا لو لم ينفجر المرفأ في العام 2020؟ ماذا لو لم ينج شقيقي الأكبر ويسبقني بقرار السفر؟ ماذا لو جرت محاسبة واحدة لفاسدٍ واحد في بلدي؟ لن أعرف ذلك أبداً.

إنّه لأمر مُربك أن تعيش شابةً بين منزلين، فذلك يشعُرني أن لا منزل لي. أبحث باستمرار عن شعور العودة إلى والديّ بعد يوم طويل وماطر في المدرسة، وعن رائحة طبقي المفضّل. منزلي في لبنان لم يعد منزلي. عاش من دوني وعشت من دونه. لم يعد يعرفني ولم أعد أعرفه. الشقة التي أعيش فيها الآن في فرنسا ليست أفضل منه حالاً. إنّها مجردّ جمع لجدران وأحواض وخزائن. في كلا البلدين أنام في سرير ليس لي.

استبدلت المكان بالناس: الناس هم منزلي الجديد، حتّى وإن رحلوا هم أيضاً.

صحيح أنّي أشتاق بشدّة إلى عائلتي وأصدقائي، لكنني أعتقد أنّ شعوراً أسوأ من ذلك يرافق الرحيل عن المنزل. فالرحيل عن المنزل يقتنّ بشعورٍ ذنب لا أستطيع التخلص منه. أشعر بالذنب لأنني هجرت والديّ. فابتعادي عن والديّ لأركّز على نفسي، هي فكرة تبدو لي في منتهى الأنانيّة. كيف تجرّأت على تركهما بعد كلّ ما فعلاه من أجلي؟ وبعد كلّ ما بذلاه من مال وجهد ووقت لتربيتي وإسعادي؟ ها هما يكبران، وأنا أكبرُ في المهجر وحدي.

لعلّي أشعر بذلك لأنني إنسانة حسّاسة، أو بالأحرى مُفرطة في الإحساس، وأبالغ في ردّ فعلي على الواقع، في حين أنّ الأمر أبسط من ذلك بكثير. لكنني تمنيتُ ألا يتخلّى بلدي عني بهذه السهولة. لقد خذلني لبنانيّ وتقاعس عن الكفاح من أجلي منذ وقت طويل جدّاً. لقد خانني لبنانيّ، وكاد أن يقتل أخي قبل أربع سنوات في الرابع من شهر آب، ولم يُعطيني حتّى الآن تفسيراً لذلك؛ لكنني، بطريقةٍ أو بأخرى، لا أزال أعود إلى لبنانيّ لأنني، في نهاية المطاف، أحبه. دائماً ما تكون لحظة افتراقنا شديدة الصعوبة

لأنّها اللحظة التي أشعر فيها أنّني أقرب إليه من أيّ وقتٍ آخر. قسا لبنانيّ عليّ، لكنّني أحبّه حبًّا جمًّا وسأبقى كذلك دوماً.

كان يوم الرابع من آب/أغسطس 2020 نقطة تحوّل بالنسبة إليّ. لم يمسنني الانفجار بشكل مباشر، لكنّه مسّ أخي وأكثر من ثلاثمئة أسرة. في الأيام التي تلتّه، ذهبْتُ إلى بيروت للمساعدة في لملمة الزجاج والجراح. بيتنا ليس بعيداً عن بيروت، لكنّه على التلّة التي شهدت الكارثة. نزلت إلى الشوارع المدمّرة مع شبّان وشابات مثلي، للمساعدة في تنظيف الشوارع وتقديم كلّ ما في مقدوري للأشخاص المتضرّرين من الكارثة، وربما أيضاً لمساعدة نفسي على استيعاب ما جرى، والشعور بأنّي ساعدت ولو بشيء بسيط. لا يمكنني حتّى اليوم أن أنسى الوجوه والدموع التي رأيته. رأيْتُ دموع اليأس تذرّف من عيون من فقدوا محلاتهم التجاريّة ومنازلهم، ودموع ألم لا يطاق ترافق تقبّل ما جرى، لأنّهم كانوا متأكّدين من أنّ الحكومة لن تساعدهم في استعادة ما فقدوه. ففقدوهم هذا أبديّ.

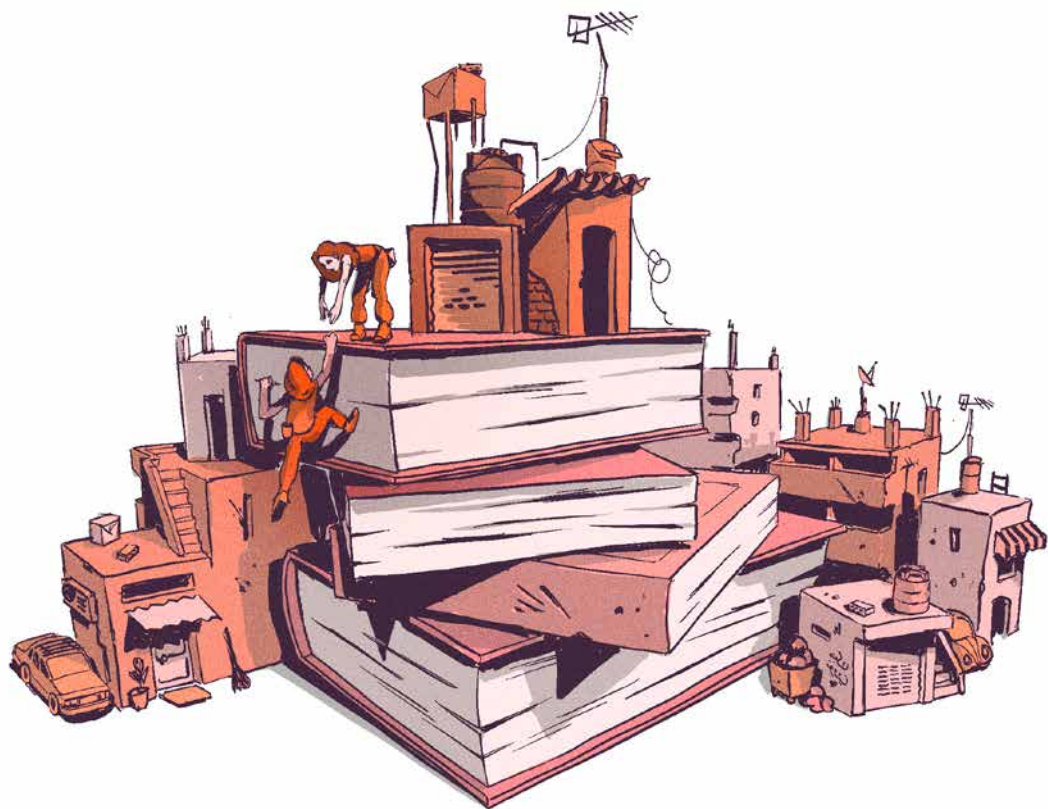
حين جئتُ إلى فرنسا، أدركتُ حقاً مدى تأثير الانفجار فيّ. الآن، يُرعبني الرعد، ترعبي الريح، ترعبي الأصوات العالية التي تذكّرني بالانفجار.

في لحظات الخوف تلك، حين يبحث المرء عن مكانٍ يختبئ فيه ويشعر فيه بالأمان، وجدتُ نفسي وحيدةً وتائهة.

لقد مضت أربعة أعوام على استقرارني في فرنسا، تعلّمتُ خلالها أنّ موطني، وإن لم أعد أعيش فيه، سيبقى دوماً جزءاً كبيراً من تكويني. أحبّ أن أعطي مثال اللبنانيين الذين يعيشون معي في دار السكن الطلّابي نفسه لأدعمَ فكريّ هذه؛ فنحن هنا نحو ثلاثون طالباً لبنانياً حيثُ أعيش، وفي كلّ شقّة من شققنا، يمكنك أن ترى العادات والقوانين والتقاليد والتفاصيل التي عادةً ما تراها في أيّ منزل لبناني. لدينا أقداح القهوة الصغيرة المزيّنة برسم زهرة الخزامى، ولدينا زعتر "شغل البيت" حضّرت أمّهاتنا وجدّاتنا، وكشك جبلي، وبهارات شرقيّة. نستعير من مطابخ بعضنا، ونتناول الطعام معاً. نُحضّر

التبولة والمناقيش والحمص بطحينة، بعد أن وجدنا المحلات التي تباع مونتتا اللبنانية وخبزنا هنا. نخلع أحذيتنا قبل دخول غرفة أي شخص، ونجتمع أيام الآحاد لتناول "الغداء العائلي" معاً، فنتبادل الأحاديث بصوت عالٍ جداً وننتظر أن يبدأ المضيف في تناول الطعام قبل أن نبدأ نحن في تناول طعامنا. نستمع إلى فيروز وفجأة نصبح معاً في لبنان، أو بالأحرى، يصبح لبنان وسطنا في غربتنا.

لقد خذلني بلدي ولكن بلدي هو من كوّنني. تركيبة حبّ وغضب، مثل طعم العلقم المرّ الممزوج بشراب الورد والليموناضة من صنع جدّتي. ولكن، وعلى الرغم من كلّ شيء، أنا ممتّنة لكوني مواطنة من لبنانيّ الذي أحمله في قلبي.





من دمشق إلى الحياة

فاطمة شحادة

فاطمة شحادة محامية في مجال حقوق الإنسان فلسطينية -
سورية وحالياً منصب مديرة برامج الشرق الأوسط في الشبكة
الأورو - متوسطة للحقوق. لديها خبرة في مجال الحماية
وحقوق الإنسان من خلال عملها في منظمات دولية ومحلية
غير ربحية في لبنان لأكثر من اثني عشر عاماً.

في عزّ الفوضى، قصص لم تُحكّ، وأصوات تصدّحُ لثُسمع، ورحلات ترسم معالم الروح الإنسانيّة المذهلة. قصّتي واحدة من هذه الرحلات؛ هي نسيجٌ من خيوط إصرار وأمل وعزيمة صلبة على النجاح في وجه الصعاب. 12 كانون الأوّل/ ديسمبر من العام 2012 تاريخ مصيريّ سيبقى خالداً في ذاكرتي. أنا المرأة الفلسطينية - السوريّة الفارّة من دمار الحرب في دمشق. دخلتُ عالمًا تقتُرُ فيه الشجاعة بالرحمة، وتحدّدُ فيه الهويّة المصير، ويتحوّل فيه كلّ نضالٍ إلى فرصة تغيير على وقع مشاركتي لتجربتي.

بدأت رحلتي في ذاك اليوم بالهروب إلى لبنان بسبب النزاع الدائر في سوريا. كنت حينذاك طالبة في السنة الأخيرة في دراسة الحقوق في جامعة دمشق، وكلّي حماسة لأنّ أخرج وأنطلق في مسيرتي المهنيّة. لكنني، من آذار/ مارس 2011 حتّى يوم هروبي من دمشق، رأيت بأُمّ العين مشاهد مرعبة ومؤلمة ستظلّ محفورة في ذاكرتي إلى الأبد. لن أنسى أبداً صباح يوم من أيّام صيف 2012، حيث كنت نائمة في سريري بعد ليلة مثقلة بدويّ الطيران الحربيّ في سماء المدينة، واستفقتُ وعائلتي على صوت انفجار ضخم، لم نشهد له مثيلاً، هزّ جدران المنزل. انتابتنِي يومذاك حالة من الهلع، فصرّتُ أجري في أنحاء المنزل بشكل هستيريّ، ممسكة بوسادتي وبغطاء سريري، إلى أن اكتشفنا أنّ الانفجار كان بعيداً عن منطقتنا، لكن لضخامته، سُمعت أصداءه في جميع أنحاء العاصمة. يوم هروبي مع عائلتي من دمشق كان يوماً عصيباً علينا جميعاً، أكادُ أذكر كلّ تفصيلٍ منه. كنّا قد حصلنا أخيراً على الماء والكهرباء بعد انقطاع دام 10 أيّام. وفيما

كنّا ننظّف المنزل ونستحمّ، في السادسة صباحاً، وقع انفجار هائل في الشارع الموازي لمنزلنا. ثمانية مبانٍ سُويّت أرضاً على الفور. تسمّرت في مكاني، فقدت البصر والسمع للحظات. كلّ ما حولي ضباب. الجميع مُعقّر بالغبار ومضرج بالدماء. ظلّت صولات من قذائف الهاون تنهال كلّ ثلاث أو خمس دقائق. لم يعد لدينا خيار سوى الهرب إلى موطن أمّي، لبنان. صورة الأمّ التي كانت تبحث، باكيةً، عن أطفالها الثلاثة ستظلّ عالقة في ذهني إلى الأبد، وصور كثيرة أخرى لمآس كثيرة شهدتها بعينيّ وأذنيّ.

في مطلع العام 2013، خلال أوّل سنتين كلاجئة في لبنان، واجهت عوائق كثيرة. اللجوء في لبنان ليس الوضع الأمثل بالنسبة إلى امرأة؛ فقد تعرّضت للتمييز والازدراء والإهمال في مواقف عدّة بسبب هويّتي ومن دون أدنى اعتبارٍ للإنجازات التي حققتها. كان عليّ مواجهة التمييز في الشوارع والمتاجر حتّى في مكان عملي. في لبنان، لا يحقّ للفلسطينيّين العمل أو امتلاك العقارات، وقد قلّص ذلك بشكل كبير فرص العمل السانحة لي مقارنةً بأمثالي ممّن لهم حالة إقامة مختلفة.

يشدّد الأمر صعوبة لأنني فلسطينيّة قادمة من سوريا؛ فالحكومة اللبنانيّة لم تُوضّح حتّى اليوم موقفها من التعامل معنا. في كلّ فرصة، كان عليّ أن أبذل ثلاثة أضعاف ما يبذله الشخص العاديّ كي أثبت قدراتي ومهاراتي.

على الرغم من المخاطر الأمنيّة الكبيرة الناجمة من بلوغ النزاع في سوريا ذروته، كان عليّ العودة إلى دمشق مرّتين كي أحقق هدفي، وهو تقديم امتحاناتي الجامعيّة للتخرّج في العام نفسه.

هويّتي وتجاربي كوّنّت ما أنا عليه الآن، وأنا فخورة بكلّ إنجاز حقّقتّه. بطبيعة الحال، تجاربي هذه لم تجعل مساري المهنيّ مستقيماً وسليماً، كأني مسارٍ عاديّ. إلّا أنّني ساهمت في إحداث تغييرات مؤثّرة في حيوات الأشخاص الذين عملت معهم.

في العام 2013، بدأت مسيرتي المهنيّة في مجال العمل الإنسانيّ بشقّ النفس. بدأتها بدافع شغفي لمساعدتي شعبي بعد أن شهدت على الكثير من الحوادث المؤلمة التي

لا تحتمل. في البداية، كنت معلّمة لغة إنجليزية لأطفال سوريين في مخيم برج البراجنة في بيروت، وسرعان ما انتقلتُ إلى مجال الحماية، فعملت مُيسرة للخدمات النفسية والاجتماعية. في أثناء هذه التجربة، عملتُ مع أطفال لاجئين شهدوا على الحرب السورية الضارية التي خلّفت في نفوسهم سيلاً من التداعيات النفسية. فعلى سبيل المثال، كان هناك طفلة في الثانية عشر من عمرها اسمها ملاك، قد نزلت مع عائلتها من درعا. شهدت ملاك على قتل والدها، وكانت ترسم باستمرار لوحات مليئة بالدماء خلال عملي معها. في حين أنّ محمد الذي كان في العاشرة من عمره قد عاش في ظروف قاسية في حلب وشهد على قتل العديد من أقاربه خلال فترة النزاع. عملتُ كي أضمن إعادة إدماج هؤلاء الأطفال في المجتمع. ولحسن الحظّ، استطعتُ لمس ثمار جهودي حين تمكّن الأطفال من الانطلاق في حياة جديدة بعيدة عن الإرهاب والدماء، والاستمتاع بطفولتهم. بعضهم تمكّن من الهجرة مع عوائلهم إلى كندا ودول أوروبية.

فتحت رحلتي هذه عينيّ وساعدتني على اكتشاف اهتماماتي الحقيقية. وهذا ما دفعني، أيضاً، إلى التوجّه إلى مجال قيادة المشاريع وإدارتها. بناءً على ذلك، عملت مع مجموعة مختلفة من المنظّمات غير الحكومية. كان العمل مع أشخاص من ثقافات وخلفيات متعدّدة أكثر أمر يثير اهتمامي في مهنتي؛ فقد عملتُ مع اللاجئين الفلسطينيين والسوريين، ومع أشخاص من جماعات لبنانية مهمّشة، كالمثليين والمثليات وثنائيي الميل الجنسيّ ومغايري الجنس وأحرار الهوية الجنسية وحاملي صفات الجنسيتين، ومكتومي القيد وعاملات المنازل المهاجرات وآخرين غيرهم. كانت مشاركتي لتجاريي ولمعارفي إحدى أهدافي، وقد نجحتُ في مناسبات عديدة في تغيير حياة بعض زملائي. فعلى سبيل المثال، وجّهت زميلاً كان يملك خلفيّة في الدراسات الاجتماعية، لكنّه لم يعمل قطّ في مجال الشأن العامّ. هو مواطن لبنانيّ سبق أن عمل نادلاً في مقهى، درّبه على مبادئ المساعدة القانونية وإرشاداتها، وعلى إعداد التقارير للجهات المانحة، وعلى مهارة صياغة المنح ومنهجيتها، وكذلك على أنظمة مراقبة المشاريع وتقييمها. بعد سنة ونصف السنة، أصبح هذا الشابّ قادراً على أن يعتمد على معرفته هذه، وينشئ نظاماً مُحكماً من شأنه تتبّع أثر خدمات المساعدة القانونية

المُقدّمة للجماعات الهشّة في لبنان. ها هو قد انتقلَ اليوم إلى إحدى أكبر المنظّمات الدوليّة في لبنان، وقد أخبرني أنّ مُستقبله تغيّر بفضل مهاراتي الإرشاديّة.

في الوقت الحاضر، أتابعُ دراسة الماجستير في جامعة القديس يوسف في بيروت، في مجال الديموقراطيّة العربيّة وحقوق الإنسان في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، كي أتمكّن من القيام بالمناصرة نيابةً عن الشباب الموهوبين المهمّشين ومكتومي الأفواه في منطقتنا.

أفكر اليوم أنّ قوّة المرونة لديّ والأمل، وعزيمتي في تغيير مسار حياتي، هي أمور ساعدتني في التعامل مع اللجوء. فرحلتني، بما فيها من مدّ وجزر، شبيهة بآلاف رحلات اللاجئين حول العالم التي تعكس جوهر روح اللاجئ كإنسانٍ لا كرقم، وتُبيّن الاحتمالات اللامتناهية التي تبرز في طريقنا حين نواجه المعاناة بالشجاعة والرحمة. آمل أن تُلهِم تجربتي هذه الآخرين في أن ينطلقوا، كلّ في رحلته، وأن يدركوا أنّ كلّ مشكلة هي فرصة للنموّ، وأنّ كلّ معركة قد تثمر تطوّرًا شخصيًا ومجتمعياً.





مجموعة 12

ناظم اللطيفي

ناظم اللطيفي تونسي مقيم حاليًا في فرنسا.
حاصل على شهادة في الإعلام، وناشط نقابي
ومدني سابق في تونس.

ها نحن هنا. وصلنا، الآن، إلى مركز إيواء المهاجرين بجزيرة لمبيدوזה الايطالية. عدد لا يحصى ولا يعد من الأحلام المعلقة على هذه الرحلات غير النظامية. لاحظت أن نسبة كبيرة من الموجودين هنا يرتدون الزي نفسه، والكل يتكلم العربية حتى من هم بالزي المدني ممّا يجعلك تكتشف أنهم يعملون بهذا المركز.

جلسنا متفرقين في مدخل المركز تقريبا، ورمال البحر مازالت مستقرة على أجسادنا المنهكة. كنا منبهرين بمشهد الأعداد الغفيرة من المهاجرين.

تقدّم ممّا شاب في عقده الثالث، أمرنا أن نجتمع بالقرب منه، وقال: هل الجميع هنا؟ قلنا نعم، متطلعين إليه بصمت. كنّا بانتظار ما سيفصح عنه.

أسرع بتسجيل أسمائنا وجنسياتنا، وحين انتهى قال لنا: أنتم تنتمون إلى المجموعة رقم 12. احفظوا هذا الرقم جيدا فهذا تعريفكم الوحيد هنا.

بعد قليل، طلبوا منا الوقوف صفّا واحداً ليأخذوا ممّا عينات لفحصنا من الكوفيد 19. ضحكنا أثناء عملية الفحص، قليلا، على ردود أفعالنا والأصوات التي تصدرها حين تدخل الممرضة عصي الاختبار في أنف كل واحد منا. كنا بحاجة ماسة للضحك مهما كان السبب.

الحمد لله، كانت نتيجة الفحص صفر إصابة. وهو شيء جميل لأنني كنت أعرف أن على المصاب أن يمكث في هذا المكان المقرف أكثر من أسبوعين إذا كانت النتيجة إيجابية.

لم يكن الوقت كافيًا لأتواصل مع المجموعة، وإن كان بودي ذلك والفضول يلازميني.

ابتعدت قليلًا عن المجموعة، مقتربًا أنا وصديقي هادي من مجموعة أطفال لكي لا يلاحظ الآخرون ما سنقوم به. أخرجنا هاتفينا من التغليف البلاستيكي الذي وضعناه قبل الانطلاق للحفاظ عليهما من التبلل. شعرت بالاطمئنان لوجود هاتفي الذكي معي، فهو أبرز العناصر في نجاح هذه الرحلة. أما هاتفي الآخر الذي يعرفه الجميع فقد أدى مهمته بنجاح وزف خبر وصولي سالمًا إلى الأراضي الإيطالية.

بلهفة، مزقت البلاستيك المحيط بالهاتف بأسناني، ثم أخرجت بطاقة الشحن من محفظتي لأشحن الرصيد. ابتعدت أكثر عن الكل. حاولت تشغيل الانترنت ولكن بلا جدوى، فطلبت من شخص آخر، أخبرني أنه هنا منذ أكثر من أسبوع، أن يساعدني إلا أنه عجز عن ذلك على الرغم من خبرته. كنت مصرًا على رؤية أمي وأبي. أردت أن أضحك وأن أقول لهما إنني بخير.

لا أمل في الانترنت. قررت أن أتصل بهما بالهاتف فلربما دقيقة كافية لذلك.

مسحت دموعي قبل المحادثة، كأنهما سيشاهدانني عبر الهاتف، و... اتصلت ...

- أهلا ياما

- عملتها يا وليدي

ونبرة البكاء... تمزق قلبي... لا أعرف ماذا أقول ...

- لباس ياما لباس

بقيت أكرر هذه العبارة حتى نفذ الرصيد. بعد ذلك، توجهت لمكان شبه خال من الناس، وبكيت.

حين عدت أدراجي حذو الشباب، أخبرونا أنهم سيقومون بتصويرنا. وكان هذا مطابقاً تماماً للتفاصيل التي ذكرها لنا المٌهَرَّب "وشواشة" عندما اتفقنا معه.

"صُف واحد ورا واحد"

تم ترتيبنا في الصفوف حسب التسجيل الأولي للأسماء عند الوصول. طلب المصور مني أنزع القبعة وكذلك نظارتي الطبية. أربع صور من أربع زوايا مختلفة!

كأنك مجرم!

بعد التقاط الصور، انتظرنا قليلاً، ليوزعوا علينا بعض الملابس. فصرنا كأننا نرتدي الزي الموحد نفسه تقريباً.

أخذنا حقائبنا وتوجهنا مباشرة لنستحم. كان الازدحام رهيباً والكل ينتظر دوره. مكثنا حوالي 30 دقيقة لنحصل على القليل من الماء لإزالة الملح عن أجسادنا.

كانت الخطوة التالية هي الأصعب.

أقسم بأنني شعرت بأنها مستحيلة. كان علينا الحصول على فراش ومكان للنوم في خضم حشود المهاجرين. لكننا تصرفنا، ولن أدخل في تفاصيل كيفية تحقيقنا ذلك. كان الأمر المهم هو حصول كل واحد منا على فراش، فتمكنا من ذلك وحجزنا مكاناً في وسط الطريق المؤدي إلى الحمام. انقسمنا إلى مجموعة وضعت فُرُشها جهة اليمين وأخرى جهة اليسار.

وما إن انتهينا من ذلك حتى وقف الصديق علي وسط المكان متسائلاً بصوته المتميز:

"شكون ما يستحقهمش الحوايج"؟ ويعني بذلك بعض الملابس والحاجيات التي تم توزيعها. أجب الـ كل "لك حرية التصرف"، فشرع فوراً بتأسيس ما يشبه سوقاً صغيرة، راسماً الضحكة على الوجوه العابسة، وهو ينادي بطريقة ذكّرت الموجودين بأجواء

سوق البلدة:

"تعالوا منا مريول سبادري بيورو واحد".

أضحكنا هذا التاجر المحترف من أعماق قلوبنا، كيف لا وقد أخرج بعد ذلك علب سجائر كان قد وضعها في حقيبته لتجتاز معه الحدود، وبدأ يتجول بين الحشود، والكل يضحك وعلي يجمع الأموال وهو يصيح "10 يورو الكاريل و5 يورو الأوريس".

كان مضحكاً حقاً حتّى عندما جلسنا لتناول العشاء كان ينظر للرز الأبيض المطبوع مثل العجين ويقول: "هذا عشي؟؟" مقهقهة بصوت عال ...

ضحكنا كثيراً قبل أن نعود إلى أماكننا لنحاول النوم.

أتذكر أنني نمت قليلاً. صباحاً، تناولنا الفطور وانتظرنا مناداة مجموعتنا "مجموعة 12"، لكي نغادر الجزيرة. أثناء وقوفنا وسط الساحة، قمنا بشحن هواتفنا، الواحد تلو الآخر، في مكان صغير يحتشد فيه أكثر من 100 شخص ينتظر دوره.

كانت سيارات الشرطة الإيطالية منتشرة في كل مكان. ولاحظنا وجود عدد من الشباب في بيت مسّيج. تبين أنهم مُنعوا من التجول لأنهم كانوا مصابين بفيروس كوفيد.

قضينا بعض الوقت ونحن نحاول اكتشاف المكان حتى تضاعف عدد سيارات الشرطة

ودار الحديث حول خروجنا من هنا إمّا إلى روما وإمّا إلى ميلانو. بعد قليل، أُذيعت أسماء المجموعات بواسطة مكبر الصوت. كان كل واحد منا متلهفًا لسماع اسم مجموعته فالكل يهاب قرف هذا المكان.

تمت مناداة مجموعة رقم واحد أولاً ثم بالتسلسل. وكان الانتظار طويلاً ليصل مجموعتنا ومن ثم مجموعة 14، إذ كان عدد المجموعات في تزايد بمرور الوقت. ولم يبق أمامنا، قبل مغادرة هذا المكان، غير مرحلة واحدة وهي أخذ البصمات. وما إن أكملت

المجموعات هذه العملية، حتى ركبنا سيارة أوصلتنا، ونحن نضحك ونغني، إلى باخرة عملاقة، وقفنا إزائها منبهرين.

اقتربت منّا فتاة قالت لرفيق الرحلة سليمانّها فلسطينية جاءت لاجئة إلى هنا، وها هي الآن تستقبل اللاجئين بابتسامتها العريضة. قامت بتوزيعنا على الغرف في الباخرة، وشرعنا بالدخول مصطفىين صفا واحداً، ونحن لا نعلم أين ستكون وجهتنا المقبلة.

يتبع...





"لهجتك غريبة، من أين أنت؟"

آية الشريكي

آية الشريكي فنانة بصرية تونسية مقيمة في فرنسا. حاصلة على ماجستير في مقاربات إبداعية للمجال العام. تهتم في بحثها الإبداعي بالفنون البصرية كأداة لتسليط الضوء على النساء المهاجرات واللاجئات من منطقة شمال إفريقيا والشرق الأوسط.

اعتدتُ هذا السؤال، فهو كثيرًا ما يتردد. أحيانًا، تقول لي أمي: "لم تمتعزين حين يُطرح عليك؟ من الطبيعي أن تلفت لهجتك انتباه الناس، لأنك لست فرنسيّة." لكنّ هذا السؤال، بالنسبة إليّ، ليس عابرًا. يقع على مسمعي وقع التذكرة الدائمة بأنني لست في بلدي، بأنني لست في مكاني.

من يتمنى أن يعيش وهذا السؤال في باله دومًا؟ من يتمنى أن يشعر أنّه غريب عن اللّغة التي يتكلّمها كلّ يوم؟

قبل أن أكمل نصي هذا، اسمحوا لي أن أعرف بنفسي. أنا آية، فنانة بصريّة تونسيّة، طالبة ماجستير في فرنسا، لي من العمر 27 سنة ولهجة غريبة.

كنت، في العام 2018، حديثة التخرّج حين سنحت لي الفرصة أن أخوض تجربة في الغرب، بعد أن حصلت على منحة للتدريب لمدة ستّة أشهر في فرنسا. لكنّ طقس شمال فرنسا والنكات المهيّنة من قبيل "أنت تونسيّة؟ أمل ألا تكوني إرهابيّة"، والحنين إلى الوطن، عوامل حملتني، في نهاية المطاف، إلى أن أحزم حقّيتي وأعود إلى تونس حال انقضاء مدّة تدريبي.

وأنا على متن طائرة العودة، حدّثتني نفسي قائلةً: "آية، لقد خضت تجربة في الغرب وها أنت في طريق العودة إلى تونس، وفي حال أردت أن تغادري تونس مرّة أخرى، فستكون

تلك، على الأرجح، المرّة الأخيرة." في كانون الثاني/ يناير من العام 2019، عدتُ إلى تونس، وأنا على قناعة تامة بأنني أريد العيش هناك. وها أنا الآن، بعد مضيّ أربع سنوات، أكتب هذا النص من مسكني الصغير الممتدّ على مساحة تسعة أمتار مربعة، والتابع للمركز الإقليمي للمساكن الجامعية والمدرسية في رين، في فرنسا.

كثيرة هي العوامل التي جعلت تجربة هجرتي عصبية. أنا من اخترت الرحيل طواعيةً، لست لاجئةً فارةً من الحرب ولا مناضلةً سياسيةً مُهدّدة بالسجن. أنا شخص عاديّ لديّ أحلامٌ دفعتني إلى مغادرة مسقط رأسي، مسقط رأسي الذي بدا، للأسف، عصياً على تحقيق تطلّعاتي. أنا التي لم أحب يوماً أن أكون أسيرة الواقع، قرّرت أن أحلق بعيداً.

ما يصعب تجربة الهجرة عليّ، أنا المهاجرة طوعاً، هو أنني أشعر أحياناً بعدم أهليّتي للتحدّث عن تحديات الهجرة، وصعوبات العيش هنا، واللحظات العصبية التي أمرّ بها. أجد نفسي غير مؤهلة للتعبير عن تعبي ولحظات إحباطي. فإن تكلمتُ، غالباً ما أسمع الردّ التالي: "أنت من اختار ذلك! إن كنت تعباً هنا، فلم لا تعودين إلى تونس؟ توقّفي عن التذمّر، حالك أفضل من حال الكثيرين!"

الاجراءات الإدارية طويلة. واجراءات تجديد الإقامة مجردة من الحسّ الإنساني. والقلق، يكون أحياناً لا يطاق. لكنّ الأصعب من ذلك كله هو الشعور بعدم الاستقرار الذي أحسّ به. لا أحسّ بأنني هنا، ولا هناك. ذات مرّة، قرأت مقالاً كتبه تونسيّ مقيم في فرنسا، يقول فيه: "نحن، الأشخاص الذين غادروا أوطانهم، أصبحنا كـشهر رمضان لعائلاتنا. أصبحنا مناسبة سنوية". بعد أن قرأت هذه الكلمات، تلك الليلة، لم أنم. في تلك الليلة، وللمرّة الأولى في غضون سنتين من الهجرة، بكيت. وها أنا، وأنا أكتب هذه الكلمات، يصعب عليّ ألا أبكي، ويصعب عليّ أن أفهم، وإن بعد مضيّ أربع سنوات من الهجرة، لم فكرة التحوّل إلى مناسبة عائلية تُخيفني. وأنا قد أصبحت كذلك فعلاً...

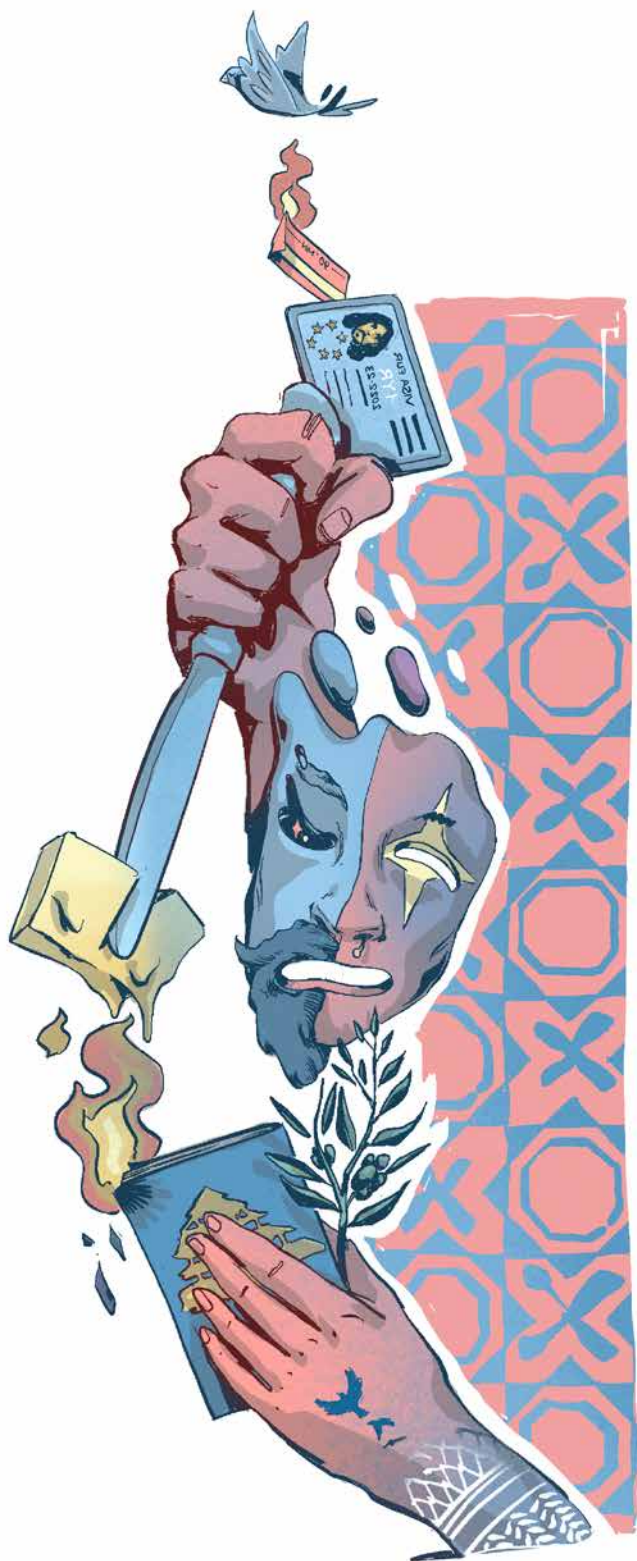
في خضمّ الحديث مع أصدقاء منتشرين في أصقاع العالم، يعيشون اليوم في الخارج بعد أن عبّروا، سابقاً، مثلما عبّرتُ أنا تماماً، عن استحالة ذلك، طرحنا على أنفسنا هذا

السؤال الجوهرى: "ما الأهم في الحياة، أن نحيا قرب من نحب، أم أن نحقق أحلامنا أم أن نكون سعداء؟" كيف لنا أن نكون سعداء إن كان علينا الاختيار بين الاستقرار والدعم المعنوي من جهة، وتحقيق أهدافنا وبلوغ غاياتنا من جهة أخرى؟ لم علينا أن نختار بين ذلك وذاك في الأصل؟

هذا الجدل يُترجم بخيارين اثنين: إما البقاء في الوطن، حيثالتنقل محدود والاجراءات شاقّة من أجل الحصول على تأشيرة سفر قصيرة الأمد، والوظيفة مرهقة تطول 15 ساعة في اليوم مقابل رواتب زهيدة، ووسائل المواصلات ليست عملية، وإما الاكتفاء برؤية العائلة مرّة أو مرتين في العام مقابل الاستمتاع بحياة رغيدة؟

قرأت يوماً منشوراً على منصّة لينكدان (LinkedIn) يصف المهاجرين بالنّاجين، لا لأنهم فروا من بلادهم، بل نتيجة الجهود التي يبذلونها كلّ يومٍ من أجل تأمين حياة أفضل. في ذلك المنشور، أثنى الكاتب على المهاجرين، لشجاعتهم، وصمودهم في وجه الوحدة. لقد أمضيت أوقاتاً كثيرة أدعمُ أصدقائي هنا، قائلةً لهم: "هيا، نحن ناجون!" وفي كلّ لحظة عصيبة من حياتي، أقول لنفسي: "آية، لقد تخطّيتِ بلاءات أعظم من هذا البلاء، أنتِ ناجية." لكنني اليوم، لم أعد أريد أن أكون ناجية. لم أعد أريد أن أكون شجاعة. أريد أن أعيش، وحسب.

النّجاة في الغربة؟ المثير للسخرية هو أنني، في الوقت الذي أكتب فيه هذا النص، أنا وجميع الغرباء في فرنسا، مُهدّدون بسحب الإقامة وبدفع غراماتٍ... لأننا جاهرنا بدعم القضية الفلسطينية علانية. نعم، هذا يحدث في بلد القيم الجمهورية وحقوق الإنسان الأبيض. هذا الواقع، أي سياق الكتابة هذا، يدفعني إلى الرّجاء، بأن تُمكننا بلادنا، يوماً ما، أن نحلم، وألاّ تجربنا على مغادرتها كي نقدر على تحقيق أهدافنا. أرجو ألاّ تبقى علاقاتنا مع بلداننا مسمومة. أرجو أن يصبح خيار الهجرة، يوماً ما، خياراً فعلاً، أي احتمالاً ثانوياً يتيح لنا الخروج من منطقة هنائنا لا الخروج للعثور عليها.



لم أرد الرحيل يوماً

مُحسن الظاهر

مُحسن الظاهر كاتب وممثل ومخرج مسرحي مقيم
في بروكسل، بلجيكا. يدرس حالياً للحصول على
درجة الماجستير في الإخراج المسرحي، ويستعد لنشر
كتابه الأول، "شفق في الأفق"، الذي يتناول لحظات
الوداع قبل الرحيل والهجرة.

في قلب المنطقة الجنوبية اللبنانية، واقعٌ يصعبُ اختصارُهُ في حضرة التّعقيد. منطقة فلسطينيةٌ أعلنها الاحتلال الفرنسيّ تابعةً لدولة لبنان الكبير قبلَ مئة عام. تهمّشت بفعل السّلاطات الطائفية اللبنانية الوسيطة للاستعمار، لتستقبل النّزوح الفلسطينيّ من النّكبة إلى النّكسة، ليثورَ أبناءُها على البطش الصهيونيّ بثورةٍ للمحرومين، ليُعشعشَ ما بين التّهميش الدّاخليّ وعناقيد الغضب الصّهيونيّة، أزمةٌ للهويّة والدّافع، ضمنَ صحراء الفقر المُزخرف باسترخاص الدّم.

في مراحلٍ بعدُ من تاريخنا، احتكرت ثنائياتٌ عقائديةٌ ملفّ العداء الصهيونيّ، أخذت تبثّ حلمَ تحرير القدس ضمن إيديولوجيا الشّهادة والجهاد. بقدر ما يبدو سموّ الرّيّ فضفاضاً في هدفه، غير أنّه قائمٌ على التصحّر الثقافيّ - النّبويّ في أحيائه. كم من مفكّر وفيلسوفٍ في المنطقة، أُغتيلَ في ثمانينات القرن المُنصرِم.

إمّا أن تكونَ منهم أو لا تكون...

بفعل الباقية المتكاملة ما بين عقيدة تملأ الارتباط الغيبي، وأيديولوجيا تُسلسل دوافع الانتماء، ودفاتر شيكات تسدّ فواتير الدّولة، من دون واحةٍ ثقافيةٍ ولو واحدة، ستجد انقساماً ضمناً بين أبناء بيئتنا، ما بين غير مناصر ومناصر. يُفرض على الأوّل التّرحال نازحاً كالبدو، والأخير كالحضر باقٍ في منظومة الصّحراء الثقافيّة. لم يكن في منطقتنا مسرّحاً ولو واحداً قبل الوصول إلى صيدا "عاصمة الجنوب".

لم ولن تكون يوماً

تجدُ نفسك مصبوغاً بنفّاثاتِ عُقدٍ تصفّرُ مع الويلات وتخضرُ عند المكافآت، لمجرّد أنّك ولدتَ هناك. فالجنوبيّ النازحُ للضّاحيّة كابنها، شيعيّ الخلفيّة، مصبوغٌ بتمطيّة ابن الشارع البلطجيّ المسلّح، هاوٍ لخطابِ المظلوميّة، مُستَشهداً بكر بلائيّة إمامهِ الحسين بن علي، متشدّداً دينيّاً مع تناقضات الفتاوى، يُتهم بالعمالة الإيرانيّة أو تحوم حوله الشّكوك. يفتقرُ لأصول الأحاديث اللّبقة "الكلاس"، منمّطاً من أبناء الشّوكّة والسّكين في وطننا ب "الفولغير"².

ليس كلّ شيعيّ هكذا، وإن كان؛ فإنّ "الوظوطة"³، حالة اجتماعيّة نابعة من فقر وليست حكرّاً على ثقافة مجتمع.

هي حربٌ كلّ يوم

نرحتُ من قريتي إلى الضّاحيّة حيثُ الكثيرُ مثلي تحت رحمةٍ محتكري الطّائفة. في تقاطعيّ للسياسة والمناطقية والطائفية والعشائرية، وجدتُ الصّبغات والتّنميّط ينهلان عليّ لطمّاً عاشورائيّاً، يتبعني إلى ميدانِ العمل. بعدَ نزوح من البيت إلى الضّاحيّة للتّعلّم، ونشاطٍ سياسيٍّ جامعيٍّ محفوفٍ بحروبٍ ضارية، كان لا بدّ من التّزوح مجدّداً في ظلّ انقطاع الماء والغاز والكهرباء، وشرهة أصحاب الاشتراكات البديلة.

ليس الحال أفضل في المناطق الواقعة خارج الضّاحية، لا بل إنّ الضّاحية هي الأرخصُ سعراً، لكن الصّبغة الشّوارعيّة التي نُرجمُ بها، لها أساسٌ في الصّحة عند عصاباتِ الاشتراكات ومحيطها المُنتفع، فتجدهم أكثرَ وحشيّةً وتفلّناً للسّلاح. نسبةُ الثّورة على الواقع أقربُ للصّفر، جاهلٌ يحملُ مسدساً كفيلاً بأن يُركّع عشرين مفكراً ومئة أستاذٍ جامعيّ.

1 من طبقة راقية.

2 مفردة فرنسيّة vulgaire وتعني السّوقي وغير اللّائق.

3 الوظووظ هو الـvulgaire بالكنة اللبنانيّة العامّة، والوظوطة هي المصدر.

نزحتُ لمنطقةِ فرن الشِّباك

نزحتُ لمنطقةِ فرن الشِّباك، منطقةً مسيحيّةً السّكان وهذا يكفي! أن تكونَ المنطقةُ مسيحيّةً، يعني أنا كأبناء جنوب "محرومين" مهمشين منمّطين، سنتطلّع منمّطين أنّا سنُعاشرُ أناساً أقلّ وحشيّةً، مثقفين ثقافةً غربيّةً، يجيدون اللّباقة وشوارعهم نظيفة. فالدّلال الفرنسي الدّاعم لمسيحيّ الشرق منذ نظام القائم مقاميتين⁴ (القرن الثامن عشر)، في الكنيسة والمدارس وحاجاتِ النّاس، جعلَ من يسوعهم أكثرَ تحضّراً من حُسيننا على مرّ الزّمن. فرصةٌ أن يكونَ جدّي ملاكاً لو كنتُ فرن شباكياً، توازي فرصةً أنّه أمّي يبيعُ لبنَ بقرته في القرية الجنوبيّة.

معَ التّزوج الثّاني، باتت كلفَةُ المعيشةِ أعلى، باقةُ الحاجاتِ مؤمنة من دون شكلٍ منتظم، حالها كحال الضاحية، لا بل إنّ العنصريّة خلّاعةٌ هنا ضمناً وعلائيّة. كم هو بحاجة ذاك القادِم من "شيعاستان" أن يقشّر من جلده ويبرّر نفسه ليكسبَ قبولهم. لم يهن عليّ أن أمدّن لكتي الجنوبيّة وأُميعها، أو أُمزجها بالمزيد من الحقول المُعجميّة الأجنبيّة، لم أرضَ تحقير منطقتي أمام النّاس بسخريةٍ لاذعة. أعني أنّي استثناءٌ حاد عن الجنوبيّين المُتمدّنين. فبعضُ المتمدّنين منّا، تصلُّ بهم ردّة الفعل القاصرة للتّنكّر لهويّتهم الأصل والانغماس بحلم لبنان الغربيّ، الواعد، بسويسرا الشرق.

لقد وجدت نفسي عالقاً بين المطرقة والسندان

ذاك التّأزُّح مسرحيّ يبحثُ عن خشبةٍ تأويه، وبما أنّ المنبر في الحُسينيّات لا يحتضنُ الفنّ الحرام أو يخلّقه، كان لا بُدّ من "مساحات الجمعياتِ الآمنة"، في ظلّ غيابِ أمني الدّولة.

لكن سطوة الانهيار والانفجار، ولبرلة النّسويّة، و سطوة اللاجئ السوريّ الشّاهد على أكل القلوب والحروب والشّرود، وتبديّة قضايا مجتمع الميم وحرّية الجنس، ضمن

4 على اثر الاضطرابات التي حصلت في لبنان بين المسيحيين والدرّوز، اقترح مستشار النمسا الأمير كليمنس فون مترنيش على العثمانيين تقسيم لبنان إلى قائم مقاميتين (1843 - 1861) بحيث يحكم الأمراء الدرّوز المناطق الجنوبية المختلطة ويعين العثمانيون حاكماً مسيحياً للمناطق الشماليّة ذات أغلبية مسيحيّة.

مجتمع لم يُفصل فيه بعدُ الدّين عن الدّولة، اصطفى ما سبقَ عناوينَ رثانةٍ لجهاتٍ الغربِ الدّاعمة، فتدوس واحدةً تلو الأخرى على حقِّ المَقهورِ الجنوبيّ المُنشغلِ بتنظيفِ شرفه المُنمّط بالهراء.

كم من السّهل أن تجدهُ في مهرجانٍ فنّي في موسكو يقفُ ساعتين للتحقيق في تشابهٍ للأسماء، أو أن تُرفض تأشيرتهُ لدُول الخليج العربيّ على الرّغم من الدّعوةِ للمهرجانِ مسرح، أو أن تجدَ زميلته في المهرجان نفسه مسيحيةً فرنسيّة الاسم، تُقبلُ تأشيرتها من المرّة الأولى.

"جلستُ مسلوبِ الفرص أشاهدُ هُراءً فنّيّاً، فقط لأنّي لا أستوفي الأجنداتِ الغربيّةَ للمؤسّسات..."

"من فرطِ تقاطعيّةِ الظّلم، وجدتُ نفسي أكرّس خطاب المظلوميّة الذي نمّطوني به..."
فهاجرت"

لم أرد الرحيل يوماً، كنتُ مُجبراً لا بطلاً. الانهيارُ والتآكل الدّموي والتّناقضُ الذي نعيشه خائقٌ بمعزلٍ عن معوّقات التّنميط. حبالُ سعرِ الصّرف، نهبُ أموالِ النّاس، النّظامُ المصرفيّ الفاسد وحالة الحرب المستمرّة على الجنوب خصوصاً. لوّعتني الأوراقُ حتّى أصل إلى أوروبا الهناء، دفعتُ الكثيرَ من المال، وعشت سياسةً اقتصاديّةً متشكّفة. بنيتُ عرضاً مسرحيّاً عن قصّتي مع معاملاتِ السّفارات المُذلة، عرضتهُ في أحدِ مقاهي بيروت بدلَ المسرح، فأسعارُ مسارحها أوحشٌ من انفجارها...

في قارّة الرّخاء

كل شي ملفت هنا، الماء والكهرباء، الطّرقات والأضواء، المسارح والأزياء، الجمال والنّساء، كل شيء مزخرف قطعة قطعة، وكأنّها سورة من التنزيل أو رقعة من الفسيفساء. لكن سياسة العسكرة في قوانين المغتربين حاضرة تشدّ الزرد علينا وسط ذاك البهاء، وحدها كفالة الإقامة تذكرُك أن هناك ثمناً تدفعه، فيمسي كل شي عبارةً عن جُرْعٍ وقتٍ

قصيرة، تأشيرةً صالحةً لسنة، عقدُ عملٍ ليومٍ واحد، تذكرةُ قطارٍ تدومُ لساعة، وابل من الأوراق حتى قيام الساعة، تدريبات وتأهيلات، تأمينات وتنبهات وتحفظات، عبارات وتوريات. كثيراً ما وَجَبَ عليّ أن أنتبه لتصرفاتي وأختار كلماتي. كأن أنتبه أن إحدى الزميلات ستشعرُ بالتهديد على حياتها، لأنني لوَحْتُ بسكّين الزبدة على الطاولة ممازحاً، وكثيراً ما عليّ أن أهضم تبجّحات اللبنايين المتنكرين لأصولهم، الضاحيوية منها خصوصاً، لأجد أحدهم ينهزني كيف أوجّه "سلاحاً" في وجهها، ساعياً إلى تعليمي الحضارة، بما أن الناس هنا ليسوا وحوشاً، ويجب أن نعترف بأننا نخيفهم.

لا أزال أحاول أن أهضم كيف أن هذا لا يُسمّى عنصريّة! لا أزال أحاول جاهداً احترام من تخلّوا عن هويتهم الأصل وتلبّسوا الثوب الأوروبي خجلين من أين أتوا، يسبّون بلادنا أمامهم فيعتونها بالرجعيّة، تماماً كالجنوبي المتمدّن النازح! لا أزال أحاول استيعاب ازدواجيّة المعايير، في أن تسمّى بلادنا دول عالمٍ ثالث بدل دولٍ مستعمرةٍ حتّى القرن الماضي، أو أن الرّقاء في بقعةٍ من الأرض ليس مقرونا بتعاسةٍ أخرى، أو أن الشعوب أصحاب الموارد، ليست رهينة أصابع الفيتو وأنها تقرّر مصيرها بنفسها. أحاول الاستيعاب لأسأل عما إن كانت فرصنا في هذه الأرض بالفعل متساوية؟

أسعى إلى شرح ذلك للعالم

لا يزال جرحُ الرحيل ينخري في سويداء صميمي، أحاول تقبّل أنه ليس من العدل مقارنة المآسي، بل إنه أمر معيب. أدركُ تمام الإدراك، أن البوصلة في معركتي، أن أخلق في مسرحي، بديلاً للتاريخ الذي لا ينفك يُمحي في منطقتي ولغتي. أعيش الآن تحت مظلة تلميذٍ للفنون، أدرس في الصّباح وأعمل في المساء. أبحث عن منحة دراسيّة تيسر أحوالي الماديّة، أستثمر وقتي قدر المستطاع فنيّاً، أسعى للحصول على جوازٍ جديد يفكّ لعنة جوازي الأزرق.

سأتعلم ما سأتعلم، سأبني ما سأبني، سأحارب ما سأحارب، واعدًا نفسي كل يوم "سأعود يوماً".





أنت وحيد

فراس الحلاق

فراس الحلاق فنان سمعي بصري لبناني
متعدّد التوجّهات يقيم بمدينة غانت البلجيكيّة
وبيروت. يستكشف عمله تأثير الفنانين على
ثقافة الشاشة وقد تم عرضه في العديد من
المعارض المحلية والدولية.

في المنفى، أنت وحيد
 حتّى في الحانات
 حتّى في النوم
 حتّى عندما تردّ على هاتفك أو على البريد
 الانعكاسات تظهر فقط في المرايا
 أنت أقلّ هنا وأقلّ هناك

لا زلت ثقیلاً

كالمبنى
 كالسيّارة الجارية
 كجهاز صرّاف آلي
 كمدينة بأكملها

لا مقياس للثقل
 مشكلة الولادة
 في ظروف حياتنا الثابتة
 كأنّ مدينتنا انتحرت ولم تمت

ماذا تفعل مع جسد أراد الموت ولم يستطع؟
ماذا تفعل بوجه مكسور؟

ماذا تفعل بجسم منهوش؟
الجسم الذي ينهض باكراً في عتمة دول الغرب
ويحدّق في المرأة ليرفع الجفن الكسلان
الجفن الذي يحمي رأسي
مما رأيت ومما أخاف أن أرى





أخترتُ أن أعانق الحياة

جويل الشَّيخ

جويل الشَّيخ طالبة سنة أولى ماجستير، تخصص أمن دولي في فرنسا بتركيز على الهجرة. هي ناشطة اجتماعية وسياسية ومدافعة عن حقوق الإنسان. كتبت العديد من المقالات الصحفية خاصة فيما يتعلق بالأحداث التي شهدتها بلدها الأم لبنان.

لطالما ظننت أن اللجوء يعني المأساة. حكاية افتراق، وألم، وهجران. انقلاباً محزناً للقدر. شاهدتُ وسمعتُ رواياتِ طالبي لجوء في أرجاء العالم كله، وما عرفت أنَّ القدر، سيضعُني، ذات يومٍ، في المركب نفسه، أو بالأحرى في حالتي، في طيّارة مُتّجهة إلى فرنسا.

منذ أن رأيت كلمة "لاجئة" على مستند رسميٍّ من الحكومة الفرنسيّة تعينيني أنا، جاهدتُ لاستيعاب تداعياتها. هل أصنّف نفسي لاجئة حقاً إن كانت تجاربي لا تُقارن بتلك التي عاشها مَنْ تكبّدوا رحلات محفوفة بالمخاطر وهم يخوضون غمار البحر الأبيض المتوسط أو يقطعون الحدود البريّة الغادرة بحثاً عن الأمان؟ هل يجوز لي أن أُعبّر عن حنيني لوطني، في وقتٍ يعاني فيه آخرون التعذيب والتّجويع ومختلف أنواع التّعنيف في أوطانهم؟ هل عليّ، بطريقةٍ أو بأخرى، أن أكتسب لقب "اللاجئة"؟

حين كانت أمّي في الرّابعة من عمرها، اضطُرّت إلى الاحتماء في قبو منزلها، وهي تسمع أصوات الأسلحة والطلّقات النّاريّة تملأ أرجاء مدينة بيروت. كان ذلك في العام 1978: أي أيّام الحرب الأهليّة اللبنانيّة. حين كنت في الرّابعة من عمري، اضطُررتُ إلى الفرار من لبنان بسيّارة أجرة بعد أن شنت إسرائيل عدواناً على لبنان. وفي الثّامنة عشرة من عمري شاركت، للمرّة الأولى، في الثورة اللبنانيّة المطالبة بالتّغيير.¹ وفي الثّاسعة

1 اندلعت يوم 17 أكتوبر/تشرين الأول في بيروت، عقب قرار اتخذه الحكومة بفرض ضريبة على تطبيق الواتساب. وما لبثت الاحتجاجات أن امتدت إلى مختلف المناطق، وطالب المشاركون فيها برحيل الطبقة السياسيّة ومحاكمة الفساد وإجراء إصلاحات سياسيّة واقتصاديّة.

عشرة من عمري، وجدت نفسي، مطوية الجسد بين الجدران، أبحث عن مأمن من الزجاج المُحطَّم الذي ملأ أرجاء المكان بعد انفجار بيروت الكارثي في الرَّابع من آب/أغسطس من العام 2020. ففي تمام الساعة السادسة وسبع دقائق من عصر ذلك اليوم المشؤوم، فقدت عائلاتٍ أفرادًا وأحبة لن يعودوا قادرين على التجمع حول مائدة الطعام، وخسرت عائلاتٍ أخرى منازلها. سأبقى، دومًا، أذكر لحظة زُلزلت الأرض تحت أقدامنا وصيحات أخي الصَّغير التي تقشعرُّ لها الأبدان: "ماما، ما بدي موت."

في ذلك اليوم نفسه، جمعنا أمي وأخبرتنا الحقيقة المُرة: لا مستقبل لنا في لبنان، لا مستقبل لنا بعد الآن. وأمِّي، كونها صحفيةً سياسيّة، تلقّت تهديدات بالقتل، ودنا الخطر منّا حتّى عتبة منزلنا. وقبل أن أحظى بفرصة لأستوعب الأمر، كنّا على متن طائرة مُتجّهة إلى فرنسا، لا ندري ما ينتظرنا. لا أزال، في بعض الأوقات، أفكر في غرفتي في وطني، وأتذكر أنّني تركت ملابس نومي على سريري، ظنًا مِنِّي، بكلّ سذاجة، أنّني قد أعود إليه قريبًا. أسألك إن كنت قد تركت باب شرفتي مفتوحًا.

لكن أقدامنا لم تطأ أرض وطننا مرّة أخرى.

كانت عمليّة تقديم طلب اللجوء رحلة طويلة ومُجهدة، وقد أخبرنا أنّ أخذ القرار بقبول الطلب أو رفضه سيستغرق وقتًا أطول. زوّدنا مُوظّفو الخدمات الاجتماعيّة في مركز اللجوء بمعلومات حول حقوقنا ومسؤولياتنا ومكان سكننا. شعرنا بالدعم وبالتقدير، وبلا أيّ إهانة. حرصوا على إشعارنا بالأمان، وهو شعور غاب عن حياتنا لفترةٍ طويلة. أشعرتني عدم تمكّني من التحدّث باللغة الفرنسيّة بالانفصال والانعزال، فلم أكن قادرة على التعبير عن أفكارِي ومشاعري. في تلك اللحظة، أدركتُ تمامًا لإدراك أهميّة اللّغة، فهي جوهر هويّتنا. عُرفتُ، عند تحدّثي بلُغتي الأمّ، بحسّي الفكاهيّ وذكائي وطبيعتي التعبيريّة. ولكن، كيف أبدو حين أستعمل لغة لا أجيدُها ومن دون أصدقائي إلى جانبي؟ لم يكن التكيّف مع حياتي الجديدة عمليّة سلسة، لكنني، بفضل مرور الوقت والعزيمة وساعاتٍ لا تُحصى من دروس اللّغة الفرنسيّة، استقررتُ تدريجيًّا في

موطني الجديد. ومع ذلك، لا أزال حتى اليوم أتلّم كلّما سألني أصدّقائي إن كنت أنوي زيارتهم قريباً، فأجيبهم، بابتسامةٍ مُتكلفة، قائلة: "نعم، ربّما بعد بضعة أشهر."

ثمّ جاءت اللَّحظة الحاسمة خلال مقابلي مع مسؤول اللجوء الفرنسيّ. طُلب مني أن أُعيد سرد الأحداث التي دفعتنا إلى هجر لبنان. وفيما كانت المقابلة تسير بسلاسة حتى شارفت على نهايتها، نظر المسؤول إلى عينيّ وقال: "أنت مدركة أننا إذا منحناك اللجوء، لن تستطيعي العودة إلى لبنان، تمام؟" في تلك اللَّحظة، تجمّد كلّ شيء. لم أقف على الحراك، لم أقف على الإجابة. انهمرت الدّموع من عينيّ، وصعب عليّ أن أستعيد السيطرة على نفسي. هل هذه إحدى التّداعيات الحقيقيّة؟ هل لن تطأ قدماي شارعٍ مرّة أخرى، حقّاً، ولن أجتمع بأصدّقائي فنقصد، معاً، مقهانا المفضّل؟ هل من الممكن أن يمسي ذلك كلّهُ مُجرّد ذكرى من الماضي؟

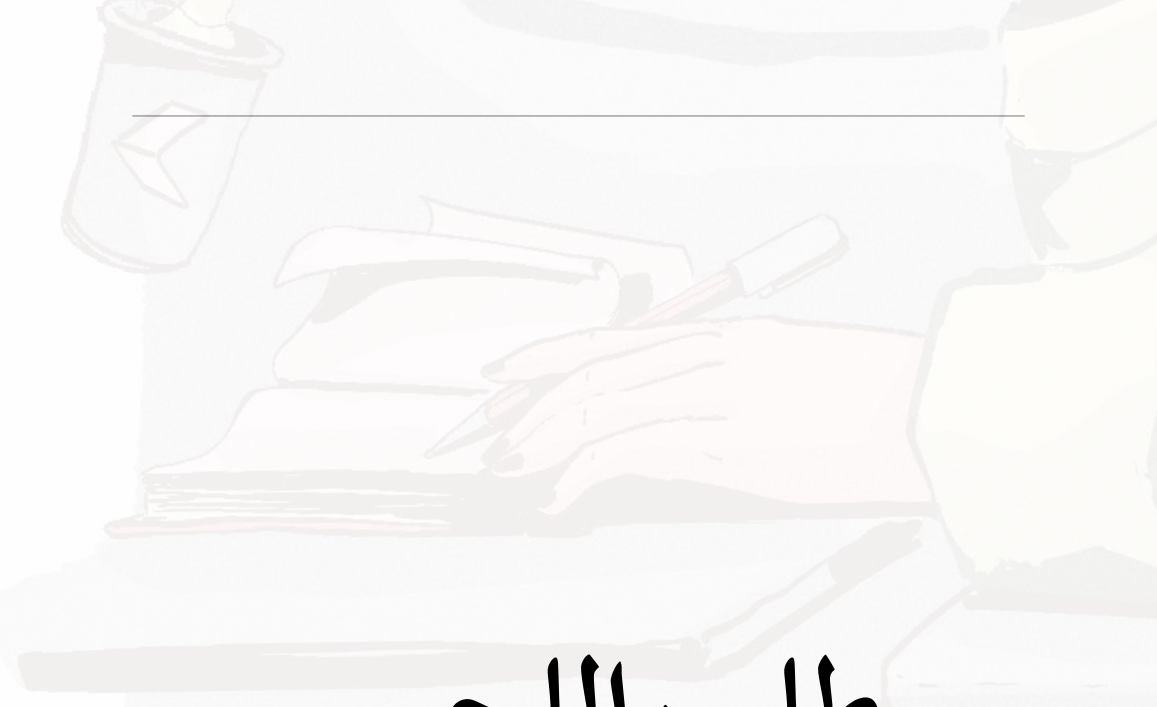
لا شكّ أنكم عرفتم نهاية هذه القصّة الآن. تلقّينا ردّاً إيجابياً. اجتهدت في تعلّم اللّغة الفرنسيّة، حتى أنّي عملت مدّة ثمانية أشهر في منظرمة فرنسيّة. وفيما أنا أكتب هذه القصّة، أجلسُ في مكتبة معهد الدراسات السياسيّة في باريس، حيثُ قبلَ طلبي لإكمال دراستي ونيل شهادة الماجستير. وفي الوقت نفسه، يعيش أخي وأمّي في بلدة تقليديّة جميلة تُدعى "أوش"، أسميها أحياناً "موطني". أنا لاجئة، وإن كان طريقي شاقّاً ولعلّه كان الفترة الأشدّ صعوبة من حياتي، إلا أن قصّتي ليست قصّة مأساة. للأسف، لا يمكنني الادّعاء أنّ الأمر مماثل لآلاف الأشخاص الذين خسروا حيواتهم بحثاً عن حياة أفضل، أو الذين تحمّلوا الإهانة وتركوا من دون مأوى أياماً طوال أو حتى أسابيع مُتعاقبة. هؤلاء يستحقّون الأفضل.

لقد مُنحت، مثلي مثل معظم اللاجئيين، فرصة جديدة في الحياة. أريد أن تكون قصّتي قصّة أمل، قصّة تُبيّن هشاشة الحياة، وسرعة انقلابها رأساً على عقب. قد تعيش حياة تبدو عاديّة، وفجأة تجد نفسك تُقدّم طلب لجوء. لم أفكر يوماً أن يحلّ بي هذا، ولكن، ها أنا هنا. من الطبيعي تماماً أن تحنّ إلى وطنك بينما تسعى جاهداً إلى بقائك بعيداً منه. أنا أحمل لبنان معي يومياً، رمزاً لتراثي، وسأكافح دوماً من أجل العدالة والمحاسبة.

إنّ تكويني حياةً بعيداً عن وطني، جعلني أدرك أن لا حاجة للاختيار بين هويتين، فنحن قادرين على البقاء أوفياء تجاه أنفسنا من جهة وعلى تبني التغيير من جهة أخرى.

واليوم، أرى العالم بشكلٍ مختلف. ولعلّ الأهمّ من ذلك، هو أنّني أراه بتعاطفٍ أكبر. الأمّهات العازبات، والأجداد ذوو اللهجات الأعجميّة، والأطفال ذوو الثقافات المختلطة؛ كلّ منّا يخوض رحلته الفريدة في الحياة. أنا أفتخر افتخاراً كبيراً بكوني لاجئة. فحملُ هذا اللّقب يعني أنّني اخترتُ أن أحارب وأتأقلم وأتطوّر. والأهمّ من كلّ شيء، إنني اخترتُ أن أعانق الحياة وأن أستمّر في ذلك يوماً بعد يوم. أرفض أن أدع الظروف تلتهمني. أسلوب حياتي دائم التغيّر، لكنني، في الصّميم، سأظلّ أكافح لأكون في طليعة التغيّر والنّمو - وعلى قدر المسؤولية التي تترتب على ذلك.





طلب اللجوء ليس ما يحلم به الناس عادة

ريان منصور

ريان منصور كاتبة واختصاصية اجتماعية
لبنانية - فنزويلية. تستمد إلهامها من تجربتها
كمهاجرة، وكذلك من هويتها اللاتينية الأمريكية
وجذورها الشرق أوسطية.

غرفة. من الرّحم حتّى جلوسي، خطأً، في مقعدٍ من الدّرجة الأولى على متن طائرة وأنا في السّابعة عشرة من العمر، كانت الجدران الثّابت الوحيد في حياتي. بقي إخوتي وأمي في مقاعدهم في الدّرجة الاقتصادية، أمّا أنا، فجلست على مقعد أحمر كبير. "إنّه يوم سعدك"، قالت المُسنّة الجالسة قربي. انسدل شعرها الرماديّ بسلام على كتفيها، وكانت ابتسامتها دافئة دفء الشّاي التّركيّ الذي قدّم لنا. لكنني لم أشعر بالتميّز أو الحظّ. شعرت بالارتباك.

من السّماء، بدت فنزويلا مُختلفة. كانت تبدو، تارةً، صديقاً قديماً، وتحوّل، طوّراً، إلى شخصٍ بعيد. ابتسمت لي المرأة المُسنّة مجدّداً، سائلةً: "من أين أنت؟" وهذا ثابتٌ آخر في حياتي: سؤالٌ عجزت دوماً عن الإجابة عليه. رحت أتذكّر دموع صديقتي المُفضّلة تنهمرُ على كتفي في عناق الوداع، ويديّ أبي تشدّ القبض على مقود السيّارة وهو يوصلنا إلى المطار، ورحت أتذكّر الأطفال الذين يفتشون في القمامة، ونظرتي الأخيرة إلى بيت فارغ أسمىته يوماً منزلي، وجدران غرفة نومي البيضاء والكلمة المُخطّط عليها باللّون الأسود الدّاكن: "أمل". للمرّة الأولى، أجبّت بصراحة على السؤال: "لا أعرف من أين أنا".

نشأت وعائلي في اضطرابات اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة في كاراكاس، فنزويلا، فعائنا التحدّيات من جيلاً إلى جيل. ومنذ ذلك الوقت، شهدت تدهور حال البلاد التي أوّت، في ما مضى، أجدادي من أهوال الحرب اللبنانيّة الأهليّة. وبدءاً من صور

السياسيين التي اكتظت بها شوارع المدينة، مرورًا ببيعنا أشياء من منزلنا لنستطيع دفع الفواتير، وصولًا إلى اضطراري للعمل في سنّ الخامسة عشرة لأتمكّن من تسديد قسط المدرسة، صار النوم ليلاً تحدّيًا صعبًا، لأنّ الواقع ودُنيا الأحلام، كلاهما، كانا كابوسًا. وفي هذا الكابوس، قطعت أيادٍ شحمتي أدنى أمي لتسرق مِنْهما قرطّين من الذهب. أيّ حياةٍ هذه إن كان علينا أن نحياها في خوف؟

لبنان، مفردة لم أعرفها سوى في قصص ما قبل النوم وأغنيات روضة الأطفال، وتأرجح معناها ما بين الرّوعة والخيال. كانت أمي تحكي لي أنّ الناس في لبنان يقطفون فاكهتهم بأيديهم، وأنّ الأطفال يستطيعون اللعب في الشوارع بأمان، وأنّ الناس يتسمون مهما كانت الظروف. لكنني حين مشيت على تراب لبنان، بعد أن تركت ورائي كلّ ما أعرفه، شعرت بثقل يستوطن أعماقي. صرْتُ جدّي الذي عاد إلى وطنه بعد ثلاثين عامًا، شخصًا جديدًا غريبًا عن ناسِوأماكن لم تتغيّر.

انقلبت الأشهر سنوات في لبنان، فوجدت نفسي أكتشف تغيّرات، لا في ما حولي فحسب، بل في داخلي أيضًا. كانت رحلتي بمثابة بداية سلسلة من التحوّلات، ولا يزال اكتشافاتي لذاتي يدفعني إلى التطوّر حتّى اليوم. فتخطّيت أيام الجامعة، وفي جيبني الشّحّيح من المال، كان أسهلّ من السّعي إلى إيجاد هدفٍ في أرض جديدة. هل من المُفترض أن أعرف أحلامي من دون أن أعرف أين أجدها؟ درستُ لسنوات مهنة اختارها الآخرون لي، وغفوتُ باكيةً من شدّة حيرتي، وسعيت إلى تكوين صداقاتٍ مع أشخاص لا يفهمونني، وقد جعلني ذلك، أشعر كلّ يوم، الشّعور نفسه. دوامة من الاكتفاء بالوجود فحسب. أين ذهبت طموحاتي؟ كيف يمكن أن أملك طموحات جديدة؟ وهكذا، واجهت أصعب أيام حياتي وأكثرها وحدةً. مجدّدًا، كلّ ذلك كان يحصل داخل غُرفٍ. مأواي الجديد وصفّي الدراسي، لكنّ شيئًا واحدًا أصبح ملاذي وهو ليس بغرفة: كشكول يوميّاتي. أصبحت الكتابة ملجأً. عندما كنت أكتب، لم يكن عليّ أن أكون قويّة طوال الوقت، كان يُمكنني أن أكون كيفما أريد، وكان في إمكاني أن أعترف أنّي أجهل تمامًا ما تعنيه الحياة لي.

بعد أن ملأت، على مدار السنة، كشاكيلَ ملأى بمشاعر لم أقو على الإفصاح عنها إلا للورق، أدركت أن بعضاً من صراعاتي لم تكن صراعاتي وحدي. كنت أمسك يد جدّي في لحظاته الأخيرة في غرفة هادئة من المستشفى، حين نزل عليّ الإهام بأن أقلب الألم إلى أثر، تمامًا كما قلبه هو عندما فرّ من الحرب. جعلتني تلك الغرفة أنضج أسرع ممّا كان متوقعًا، حتّى أكون سند نفسي وعائلي والآخرين. بدأت الكلمات التي كنت أكتبها تكسر القيود، وتلحّ على أن يُنطق بها. بعد ذلك، تجرأت على إنشاء حساب على إنستغرام شاركت فيه الخواطر التي كنت أكتبها باسم مستعار. أصبح هذا الحساب مأمني الذي أشارك فيه أفكار وفتي بحرية. وبعد فترة، أصبح الحساب مأمن أشخاص آخرين أيضًا. لكنّ الاختباء وراء هويّة مُغفلة الاسم لم يعد يرضيني. ممّ كنت أختبئ؟ تلقيت دعمًا من غرباء على الإنترنت جعلني أدرك أنّهم يستحقّون معرفة اسمي. وفي العام 2022، نشرت بنفسني كتابي الأوّل وعنوانه "All the People I've Been"، وهو كتابٌ يمعن النّظر في التّغيّرات الثّابتة التي يمرّ بها النّاس في حياتهم، وذلك عبر سرد قصص قصيرة. وعلى الرّغم من أنّ هذا الكتاب لم يجعلني مؤلّف كتاب من الكتب الأكثر مبيعًا في العالم، ولم يملأ جيوبي بالأموال، إلا أنه أثّر شخصيّتي ووصلني بأشخاص أصبحوا، منذ ذلك الحين، من الغالين عليّ.

اليوم، عمري 24 سنة وأنا أكتب هذا النصّ من غرفةٍ أخرى: مكتبي حيث أعمل عاملةً اجتماعيّة وأتفاعل مع اللاجئيين كلّ يوم. يأتونني على قصصهم، ونبحث معًا عن مصادر للصدوم، وعن خطوات تخفّف وطء التّحدّيات التي يعيشونها خلال رحلة الهجرة. لم يكن تحوّلي إلى ما أنا عليه اليوم ضمن خططي قطّ، وأنا مُمتنة لرحلتي. لكنّ ترك كلّ شيء وطلب اللّجوء إلى بلد آخر ليس أمرًا من المألوف أن يحلم به النّاس. نحن نحلم بالسلام والصّحة والأهل والحبّ والتعليم. فمتى سيعيش النّاس بسلام في منازلهم؟ وهل ستصل الإنسانيّة إلى الوحدة التي يحتاجها ذلك؟ صحيح أن كلّ إنسان يُحارب في معركةٍ ما، لكنّ اللاجئيين والمُهاجرين يُحاربون منذ زمنٍ طويلٍ جدًّا.



المنفى

عليا جريج

عليا جريج من أصول لبنانية وفرنسية ويونانية. هذه الخلفية المتعددة الثقافات واللغات والتاريخ تمثل جزءاً أساسياً من شخصيتها وزودتها بوجهات نظر عالمية فريدة. متحصلة على درجة الماجستير المزدوجة في الشؤون الدولية وحقوق الإنسان.

في كانون الأول/ديسمبر من عام 2004، غادرت لبنان مع أسرتي. كان عمري، حينذاك، أربع سنوات. ظننا أن عودتنا إليه ستكون سريعة. كان رحيلنا لأسباب ترتبط بعمل والدي، وقد اعتقدنا أن إقامتنا في الخارج لن تطول أكثر من بضعة أشهر. لكن اغتيال رئيس الوزراء رفيق الحريري، في 14 شباط/فبراير سنة 2005، شكّل بداية دوامة من العنف، وأحبط آمالنا بعودة لن تحصل أبداً.

تأرجحنا ما بين لحظات أمل، لا سيما عند انسحاب القوّات السوريّة من البلاد، ولحظات قلق عميق، حين حصلت الحرب في العام 2006 مع إسرائيل. تلك التقلّبات المعنويّة ضبّطت إيقاع نفينا، فوازنت بين الأمل وخيباته، على وقع أحداث صعب التنبؤ بها.

أنا ابنة عائلة منفيين يتحدّرون من أصول تركيّة وفلسطينيّة وسوريّة. كبرتُ على قصصٍ ملأى بأسى الهجرة والنفي، وبألم الاشتياق والفقد. نشأتُ على سماع قصص أهلي وارتباطهم بالمنفى أيّام الحرب الأهليّة اللبنانيّة. تجربة أهلي مع النفي تصبّ في سلسلة متوارثة من الصدمات والتجارب التي سطرّت تاريخنا العائليّ. كبرت في حيرة ثابتة: أرحل؟ أعود؟

أفضّل التكلّم عن نفي، لا عن مجرد هجرة بسيطة، لأنّ النفي يعني انفصلاً عميقاً، نوعاً من الحنين الشديد. ونفي النفس، يعني أحياناً الرحيل بملء الإرادة؛ لكنّه غالباً ما يعني أيضاً الابتعاد عن الوطن كرهاً. كالطيور المهاجرة التي تمتدّ أجنحتها هرباً من قسوة الشتاء لتتجنّب الفصول الباردة القاتلة، لكنّها، في الوقت نفسه، تحافظ على رابط وثيق

بأرضها. فمثل تلك الطيور، تعلّمت أنا أيضًا الطيران، لكنّ بعضًا منّي لا يزال متجذّرًا في أرض لبنان، عصيّ التفكّك.

علاقتي بالمنفى تطوّرت كثيرًا، ولم أبدأ باستيعابها استيعابًا عميقًا إلا في الآونة الأخيرة. أذكر أنّني أحسستُ، وأنا صغيرة، بالفخر في العيش خارج لبنان. لكن مع مرور السنين، انقلب الفخر خجلًا، ومرّد هذا الشعور هو عدم الأهليّة؛ أي إحساسي بأنّني لست لبنانيّة بما فيه الكفاية مقارنةً بالآخرين. منفاي جعل الشكّ يساور انتمائي وهويّتي، وألقى عليّ شعورَ ذنبٍ ثقيل، ناجمًا عن الاستمتاع بفرصة العيش في الخارج واكتشاف آفاق جديدة، فيما الآخرون بقوا في الوطن، وفي ظروفٍ عصيبة في بعض الأحيان. منفاي سبّب أسّى عميقًا في نفسي، وأجّج أزمة الهوية لديّ، وأقام حواجز خفيّة بيني وبين وطني.

تقول الكاتبة اللبنانية الأميركية إيتيل عدنان: "المنفى لا يقتل الشغف؛ بل على العكس، هو يقوّيه لكنّه يجعله بائسًا تمامًا. المنفى هو إدراك هذا التهميش وهذه الخسارة التي لا يمكن علاجها. المنفى هو خسارة أقرب ما يكون إلى الهوية، هو الخسارة المرتبطة بالتاريخ والجغرافيا".

هذه الكلمات تلامس تجربتي. تعكس إدراك تهميشي، وهو يتجلى عمليًا في علاقتي مع اللغة، لأنّ علاقتي مع اللغة العربيّة محفوفة بالتعقيدات، ولصيقة بزورِ الذنب والاضطراب.

الضغط الدائم لأجيد تكلم العربيّة، والخوف من الانتقاد بسبب عدم إتقاني هذه اللغة، يرسمان حدودًا خفيّة لا يمكنني تخطّيها، فتعزلني. لقد فاقم منفاي هذا الصراع الداخليّ المتعلّق باللغة التي تجسّد جذوري وهويّتي، وأثار، في نفسي أيضًا، شعورًا كبيرًا بالخسارة.

اللغة العربيّة التي تدلّ على هويّتي وجذوري، تُجسّد، في الوقت عينه، ثنائيّة مؤلمة. هي مرآة ثقافتي، لكنّها تعكس أيضًا بعدي عن لبنان؛ وهذا ما يؤجّج شعوري بعدم الأهليّة. إنّها دومًا تقاومني.

يبدو لي أنّ منفاي محاولة لاستئصال من جذوري، غير أنّه قوّى، في الواقع، ارتباطي الثابت بمسقط رأسي. فجذوري، ولئن كانت قاتلة في بعض الأحيان، إلّا أنّها مقاومة صلبة. وهذه التجربة في ابتعادي عن مسقط رأسي، أحييت، في المقابل، حبيّ الجمّ للبنان، وعزّزت شعوري الدفين بالانتماء إلى هذا البلد.

منفاي شكّل ما أنا عليه اليوم، ووجّه خياراتي المهنيّة والشخصيّة، كما ساهم في إذكاء رغبتني العارمة في العودة يوماً ما إلى لبنان، وإقامة علاقة وثيقة معه وإيجاد أهليّة الانتماء إلى ثقافتي.

لكنّني أتساءل أحياناً عن هذا الرابط ببلدٍ يبدو حلماً أكثر منه حقيقةً. أهو ضرب من الخيال أم الوهم أم الإصرار العنيد، في حين أنّ ملامح البلد للأسف قد تغيّرت إلى درجة تجعلني أستصعب، أكثر فأكثر، التعرّف إليه والتماهي به؟

أشعر بمنفى داخليّ عميق يتجاوز مجرد مسألة الجغرافيا أو الحدود، وإنّما هو بلدٌ ضائع، منفى نهائيّ لن أقدر أبداً على التأقلم فيه.





الحياة بين عالمين

ريتا عبيد

ريتا عبيد ولدت ونشأت في بيروت. حاصلة على
شهادة الدكتوراه في علم النفس التنموي وهي محاضرة
في علم النفس في الولايات المتحدة. تركز أبحاثها
على تطور اللغة لدى الأطفال والأفراد المصابين
بالتوحد ومقدمي الرعاية لهم.

كنت جالسةً في مطار أنتظر عند محطة استلام الأمتعة، حقيبتين تحملان حياتي كلها بعد أربع وعشرين ساعة من السفر. ليس لي سوى أن أجلس وأحكم الإمساك برسالة قبولي في برنامج الدكتوراه، التي رحت أتهياً، قلقاً، لإبرازها إلى ضابط الأمن عند إدارة الجمارك. الوصول إلى أمريكا هو إنجاز بحد ذاته. الأمس كانت رحلة سفري الثانية إلى خارج لبنان؛ فبعد أن اتبعتُ كل تلك الإشارات وعبرت ثلاثة مطارات مختلفة، أدركت أن الوصول إلى أمريكا هو فوزي الأول.

كان من المفترض أن تكون إقامتي في الولايات المتحدة الأمريكية، عتبة انطلاق في حياتي، فترة وجيزة أنال خلالها شهادة الدكتوراه في علم النفس قبل العودة إلى وطني. اثنتا عشرة سنة مرّت، ولا تزال طموحاتي تُبقيني هنا، في هذا الموطن الجديد.

بعد أن اجتزت إدارة الجمارك، انحنيت لأمسك هاتفي وأرى متى سيأتي صديقي ليقبّلني، بعد يوم طويل من السفر، لكي تطأ قدمي أخيراً 'منزلي' الجديد. كان لوصولي طعم الفراغ. محطّتي الثانية ليست شقة خاصة بي؛ لم أكن قد استأجرت واحدة أصلاً. كان خالي قد تواصل مع بعض معارفه ليجد لي مسكناً أقيم فيه خلال الأسابيع القليلة المقبلة.

وأنا في السيّارة، نظرت من النافذة إلى الخارج، وراحت عينايتي تنتقلان من منظر إلى آخر حتّى وقعتا على جسر معلق جميل يمتدّ فوق المضيق المائيّ ويربط جزيرة ستاتن ببروكلين. جذب جسر فيرازانو انتباهي، حيث لخص بشكل مثاليّ حماسي لهذه

المرحلة الجديدة من حياتي. ولعلّها الحماسة نفسها التي جعلتني أعبر، يومًا بعد يوم، ذلك الجسر الذي أصبح طريقي اليوميّ على مدى السنين الستة اللاحقة.

ما إن وطأت عتبة داري المؤقتة في بروكلين حتّى أصابني أوّل درسٍ تعلّمته عن العيش في نيويورك في الصميم. اتّضح لي أنّ المظلات الموضوعة عند الباب ليست مجرد زينة، على حدّ ما اعتقدت، بل هي للاحتماء من المطر الذي ينهمر على المدينة حتّى في عزّ الصيف! وأنا، في يومي الأول في نيويورك، كان المطر آخر همّي. فمهمّتي لذلك اليوم كانت تسجيل وصولي في برنامج الدكتوراه، وهي مهمّة تبدو بسيطة لو لم أكن في واحدة من أكبر المدن على الأرض، ولا علم لي بنظام القطارات فيها. أرسلت العائلة مضيفتي ابتنّها لترافقني إلى منهاتن، ومن هناك، دخلت عددًا لا يحصى من المنعطفات، ورجعتُ على عقبيّ مرارًا قبل أن أصل، أخيرًا، مركز الدراسات العليا. وقفت هناك أحدّق البصر إلى معلّم مُبهر قريب جدًّا. علت ناطحة السحاب "إمباير ستايت" شامخة فوقيّ، فأدركت أنّي محظوظة جدًّا لأنني أرى هذا الجمال كلّ يوم. أسرّنتي المدينة، هرجها ومرجها وصخبها. العالم هنا، في متناولي، لكنني، في الوقت نفسه، أنا مجرد جزء صغير جدًّا من هذه المدينة. بثّت نيويورك الحياة في روحي.

بعد مضيّ أسبوعين، دفعني قلقي المتزايد من إطالة بقائي في بيت العائلة المضيّفة إلى البحث عن شقّة. وجدت شقّة تتيج لي إنفاق جزء من منحتي وتبقيني قادرةً على تحمّل تكاليف الطعام. نقلتُ حقيقتي إلى جزيرة ستاتن، وكانت أوّل مرّة أعبرُ فيها جسر فيرازانو الجميل. ما إن وصلت الشقّة حتّى برزت أمامي بعض المشكلات الفاضحة. فحين ينتهي بك المطاف إلى مكان فيه برّاد وليس فيه مطبخ حقيقيّ، تدرك فورًا أنّ إنفاق مبلغ 500 دولار في الشهر إيجار شقّة في نيويورك ليس فكرة سديدة. وكانت الشقّة مفصولة عن الطابق العلويّ حيث يقطن مالكوها، بستائر بيّنة رديئة؛ فلا عجب أنّني وضّبت أشياءي على عجل ووجدت مكانًا جديدًا آخر. هذه المرّة، عثرت على غرفة واحدة، وإن كان أجارها باهظًا أكاد لا أتحمّله، لكن، أصبح لديّ الآن مطبخ. وسرعان ما كشف لي المطبخ قصوري في الطهو، وسهولة حياتي في بيتي وفي وطني.

ذات يوم، كنت أَسْتَقِلَّ حافلة مرّت من أمام تمثال الحرّية! فبعد أن انقضت شهورٌ أنا فيها مجرد زائرة في نيويورك، انقلبت الأمور رأسًا على عقب، وأصبح ذلك المكان موطني. موطن أحبّته وعلمّني الكثير على مرّ السنين الستة اللاحقة. لقد أجدتُ فنّ اللحاق ركضًا بالحافلات التي تسبق وصولي إليها، واعتدت البرد القارس أثناء انتظاري قطاري اليوميّ، وتضاءل كرهى للشتاء، وإن ما زلت أفتقد البحر.

أنهيت أطروحتي، ثمّ عملت في منطقة البرونكس عامًا كاملاً. بعد مرور ستّ سنوات في نيويورك، بلغت قصّة الحبّ، التي كان من المفترض أن تكون محطة وحيزة في حياتي، نهايتها. أحبّبت نيويورك، لكنّ المسير أربع ساعات يوميًا من جزيرة ستاتن وإليها، أرهقني. رحّت أبحث عن عمل ثانية، فوجدت وظيفة في مدينة كليفلاند في ولاية أوهايو. حين ذهبت لإجراء المقابلة هناك، وأنا أمشي في صرحها الجميل، عادت بي الذاكرة إلى مدينتي في لبنان. فعمارة جامعة كيس وسترن ريزيرف ذكّرتني بالجامعة الأمريكيّة في بيروت. وما كاد الحبر يجفّ على ورقة العقد، حتّى بدأت أوضّب أشياءي. وحقيقتاي أصبحتا اثنتين وعشرين صندوقًا مرسلاً من مكتب البريد إلى كليفلاند.

ها أنا هنا الآن، أقوم بالبحث الذي أحبّ، وأعمل مع طلاب شغوفين. لقد وجدت ما كنت أبحث عنه: وظيفة مجدية ومجزية... عملاً يُطوّرني ويُعلّمني. لقد علّمتني إقامتي في الولايات المتّحدة الأمريكيّة الكثير. أدركت قليل معرفتي. أدركت الجمال والتطوّر النابعين من التنوّع. أدركت أنّي أريد أن أواصل تعلّمي وتطوّري، وأنّني أريد أن أدعم كلّ من يتخذ مسارًا مُشابهًا. هجرتي من لبنان كانت طريقًا وعرة؛ لعلّ حياتي كانت لتكون أسهل في وطني. فالبقاء هناك كان ليقيني ألم افتقاد العائلة والأصدقاء. لكنّ داري في الشرق الأوسط، على جمالها وسحرها، قد هُدمت. وها أنا هنا، قبلت الفترة الوجيزة إلى مشروع حياة، ولكلّ مكانٍ في هذا الترحالٍ أسميته موطنًا، مكانٌ في قلبي.



هذا ما أردت قوله لك

ثيا خوري

ثيا خوري تؤمن بأن الكلمة المكتوبة تمتلك القدرة
على صياغة حقائق أكثر عدلاً. هذه الشهادة بمثابة
تكريم لوالدها، الذي تلجأ إليه طلباً للهداية، ولوطنها
لبنان، الذي يمرّ حالياً بأزمة.

بابا،

أَمَلْتُ أَنْ تَكُونَ الظُّلْمَةُ قَدْ أَحْسَنْتَ لُقْيَاكَ،

رَحَلْتَ بَاكِرًا، لَكِنِّي

سَعِيدَةٌ، نَوْعًا مَا

إِنَّكَ لَمْ تَبْقَ لَتَرَى بِلَدِكَ يَنْزِفُ

لَمْ أَتَخَيَّلْ يَوْمًا أَنْ أَحْتَاجَ

أَنْ أَحْدِثْكَ بِأَفْكَارِي

بَعْدَ مَمَاتِكَ

مَا كَانَ هُنَاكَ وَقْتُ لِلْكَلامِ

جَذُورُكَ عَمِيقَةُ التَّأَصُّلِ بَدَأْتَ الْآنَ تَتَحَلَّلُ

وَتَرَكْتَ فِي الْبِلَادِ بَقْعَةً رَطْبَةً

يَخْرُجُ هَذَا مِنْ قَلْبِ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ

وَيَمْتَدُّ إِلَى الْفِلَسْطِينِيِّينَ وَالسُّورِيِّينَ وَاللِّبْنَانِيِّينَ

هَذِهِ الْحُرُوبُ لَا تَنْفَكُ تَسَبَّبَ

فَقْدًا جَلَلًا

لِكُلِّ مَنْ حَلَّتْ عَلَيْهِ لَعْنَةُ الْوِلَادَةِ

فِي الْأَرْضِ الَّتِي سَارَ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ

هو أيضًا اعتدي عليه
العنف يطغى ويبقى

الصليب الثقيل الذي أتعب هذه الأوطان
شعوبها ضحايا مفاوضات فاسدة
طبعت الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان
أجل،

المسيح سار في هذه الأراضي، لكن
السياسة اغتصبتها مرارًا

والعناصر الطبيعيّة توفرت فيها، مدرارًا.
هذا النظام معيوب والسبب هو الدين

وهو ما جعلوا منه القانون

الانتفاضات المدنيّة تكتسح البلد

الشعب غاضب، لا يعرف إلى من يلجأ

لا أحد هنا يُحاسب

لا تُسيء فهمي، أنا أحبّ بلدي

لكنّ هذه الحكومة مسؤولة

عن الانتحارات الجماعيّة في وجه الجوع

هناك رجل، رمى نفسه بطلقة في وضوح النهار

في شارع الحمرا،¹ استلقى ليرتاح

كان ذلك احتجاجه

1 أحد الشوارع الرئيسية في مدينة بيروت، لبنان، وأحد المراكز الاقتصادية والدبلوماسية والثقافية الرئيسية فيها.

والعبارة التي تركها
 كتبت على سجله العدلي المتضمن "لا حكم عليه"
 تقول: أنا مش كافر بس الجوع كافر²
 كان ذلك بسبب الفاقة
 كانت صرخة، لجميع الآباء أمثاله
 المكافحين لإطعام أولادهم، فيفضلون الموت

أريد أن أشكرك، بابا
 لنباتك في أرضك
 فقد عشت حرباً
 ثلاثين سنة من تراكم الندوب النفسية
 لقد جاهدت في سبيل بلدك، ومُتَّ على أرضه
 لكنك حين احتجت خلاصاً، لا يد عون مُدَّت.
 يؤلمني أن أرى الحرب التي واجهتها، تستعُر، كان ما كان
 الفرص مُنتفِية
 والتنازل
 ثمّنُ يفترض بجيلي أن يدفعه.
 يخرج هذا من قلب الشرق الأوسط
 ويمتدّ إلى الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين
 هذه الحروب لا تنفك تسبّب
 فقدًا جلاً
 لكل من حلّت عليهم لعنة الولادة

في الأرض التي سار عليها المسيح
وهو أيضًا اعتُدي عليه

العنف يطغى ويبقى
الصليب الثقيل الذي أتعَبَ هذه الأوطان
شعوبها ضحايا مفاوضات فاسدة
طبَّعت الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان
أجل،

كان لي صديقٌ نصير للسلام
يحبُّ كأنَّ ليس لِغير الحبِّ مكان
ألقوا القبضَ عليه، وصار حديث الأخبار
موازنات حكوميَّة تُنفق من أجل نصب كمائنَ لفطريات
كان الشَّابُّ يُنمي الفطر السحري
لكنَّه، على العلن، صُيِّرَ مُجرمًا - عقلاً مُدبِّرًا
يهدِّد حيوات الأبرياء
كلَّ ذلك يحدث بموازاة الفوضى
لكن، حمدًا لله، لدينا رجال شرطة
يلقون الهيبيز خلف القضبان، يخدمون بلدهم
"يحمون السلام"

سخيف هذا التَّشبيه، لكنَّه دقيق
عن ردِّ فعل رجال الدَّولة إزاء شعبٍ،
يطلب الإصلاح،

كان الأجدى بهؤلاء أن يتجرّعوا الـ "سيلوسيبين" الذي أخذوه،
 أن يقوموا برحلة،
 أن يوسّعوا عقولهم قليلاً،
 سئمتُ من هذا الهراء، أختنقُ - على الحافّة،
 أحتاج أن آخذَ نفساً، استراحةً.
 مدينتي الآن ليست سوى ما كانته سابقاً،
 تحاولُ مجدّداً التخلّص من ندوبها،
 كدابةٍ مجروحةٍ، تُكافح للتنفّس،
 تلقى في قناة صرفِ ماء،
 تحاول التّعافي، شأنها شأن أراضٍ أخرى،
 تُضربُ وتُجرّ،
 تُتركُ عاريةً ومنديّة الجبين،
 في مكانٍ ما من الشرق الأوسط.
 ثمّ جاءت القسّة،
 التي قصمت ظهرَ البعير،
 لم يصوّرها الإعلام كاعتداءٍ صهيونيّ،
 ألّقوا اللوم على التقصير المحليّ،
 وادّعوا أنّ الأدلّة غير وافية
 ليضعوا
 ميليشيات السلطنة الإرهابيّة
 في قالبِ انصهارٍ.
 انفجارٌ
 حوّل مدينتي إلى مجرد رماد،

300,000 مُشرّد، و6,000 جريح و200 قتيل،

ولم يؤدّ ذلك،

إلى أيّ ردّ من الحكومة،

بل،

هَبّ الشعب،

لنجدّة العاصمة،

الشباب مُدجّجون بالمكائس،

وبطعام يُوزّع،

ردّ فعل المُجتمع ولّد بصيص أمل،

كان مُطمئنًا،

هذه فطرتنا،

ها نحن هنا، وها أنا هنا،

أناضل من أجل بلدي، هل سأموّت على أرضه؟

هل سنلقّى خلاصنا وسط الضّباب الكثيف؟

سؤال يساورني ويطبّق عليّ في ظلّمة

زنزانة.

هذا هو الحال يا بابا،

هذا ما أردت إخبارك به،

أرجو حقًا أن تكون بخير،

أردت أن أزيل بعض الوزر عن صدري - أن أفصّحه،

شكرًا لمنحي أذنًا مصغية، بابا،

أستطيع أن أشعر بك،

وأدعو أن ترقّد أخيرًا في سلام.



Ministry of Foreign Affairs of the
Netherlands

ICTJ

عدالة
حقيقة
كرامة

منذ أن غادرت لبنان عام 1976 للاستقرار في فرنسا، كم من مرّة سألني بعضهم عن طيب نيّة عن شعوري هل أنا «فرنسي» أم «لبناني». وكنت أجيب سائلي على الدوام: «هذا وذاك!» لا حرصاً مني على التوازن والعدل بل لأنني سأكون كاذباً لو قلت غير ذلك. فما يحدّد كياني، وليس كيان شخص آخر، هو أنني أقف على مفترق بين بلدين، ولغتين أو ثلاث لغات، ومجموعة من التقاليد الثقافية. وهذا بالضبط ما يحدّد هويتي. فهل أكون أكثر أصالة لو استأصلت جزءاً من كياني؟

من "هويّات قاتلة" لأمين معلوف